obeikandl.com

بيت الـميزوني

الكتاب: بيت الميزوني
المؤلف: هِـــدَاءُ الجَّـالِي
تصميم الغلاف: كريم آدم
تدقيق لغوي: د. عماد هلال
رقم الإيداع: 2016/27233
الترقيم الدولي: 979-977-778-105-3

20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة
ت: 02 35860372
Noon_publishing@yahoo.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

obeikandl.com

بيت الـميزوني

رواية

هِـــــدَاءُ الجَّـالِي

للنشر والتوزيع

obeikandl.com

المراجعة التاريخية

د. عماد أحمد هلال

رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب
جامعة قناة السويس

obeikandl.com

إهداء

إلى نبضات قلب أمى التى تحيني

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

حِوَارٌ مَعَ المَاضِي

أجلس على الشاطئ مستلقية وفي قلبي شيءٌ لا أعرف حقيقته وما هو، أرى بجانبي جروي الصغير يقترب من مقعد الشزلونج الذي أُلقي رأسي وجسدي عليه، لا أنتبه لنفسي وعقلي الذي حَوَّل هذا الجرو إلى جندي يرتدي بزة عسكرية، وفجأة أرى خلفه جيشًا من الجنود الذين يرتدون البزات العسكرية ويحملون على أكتافهم شارات تتراوح بين شارة واحدة وأكثر من شارة.

ثم ألقي نظرة على الشاطئ فأرى سفنًا كثيرة يصعد إليها جنود آخرون يرتدون بذلات عسكرية تميل إلى الصفرة، بخلاف البذلات التي يرتديها الجنود حولي الذين يرتدون بذلات رمادية اللون، أترقب الموقف في خيفه واستمع لذوات البذلات الرمادي يتكلمون الإنجليزية لذوت البذلات الصفراء، انهض من مجلسي لأتجوَّل بينهم وهم لا يروني ولا يشعرون بوجودي. أمر بينهم لأتفقد ماذا يقولون ومَنْ هُم وأمرهم، ظللت امشى بطول الشاطئ فلا قدمي يأتي بنهاية عددهم ولا نظري. أقف لحظة لأستمع لأحدهم الذي يرتدى البذلة الصفراء وحوله مجموعة من الجنود المشابهون له ويبدو على ملامحه القلق والحزن والانكسار يبرزه حديثه وهو يقول لآخر يرتدي البذلة الرمادية، أحاول على قدر ثقافتي ترجمة حديثه فأجده يقول:

- سيدي الجنرال سيدني سميث أنا أنتظر زوجتي وطفلنا فهي آتية برفقة صديقي الفرَّان ليلًا، ولن أرحل بدونها، فقط أمهلنا بعض الوقت حتى تأتي.

فردَّ عليه قائلًا:

- سننتظر لآخر الليل حتى تأتي، وإن لم تأتي سنرحل، فلا سعه لدينا للانتظار.

لم أعلم مَن هؤلاء، ولا لماذا أتوا إلى مدينتي مدينة الإسكندرية، أو بالأحرى لماذا ذهبت أنا لهم؟

أتجه نحو مجموعة أخرى من ذوي البذلات الصفراء، أراهم بائسين ومنهكين، ويتحدثون الفرنسية لبعضهم قائلين:

- لا بد أن نرحل الآن، لن نستطيع الانتظار في هذا البلد أكثر من ذلك».

وأثناء حديثهم أتى جندي من ذوات البذلات الرمادية باسمًا وساخرًا بإيماءات وحركات بهلوانية قائلًا بما معناه بالإنجليزية:

- لقد أهلكتم جيشكم في محاولتكم السيطرة على الشرق.

- فثار أحد الجنود من ذوات البذلات الصفراء قائلًا في حَّدة:

- لن تستطيع بلادكم أيضًا السيطرة على الشرق، فلقد أخفقنا نحن بقواتنا وعددنا وعِلمنا وعُلمائنا، فمن أنتم حتى تنتصروا؟!

فجأة تحوَّل النقاش إلى شجار لفظي كاد أن يتحول إلى تشابك بالأيدي، لولا تدخل جنرال كبير من ذوات الرمادية محاولًا إقصاء جنديه عن هؤلاء الجنود الغاضبين.

بدأت أتفهم ما يجرى وأن هؤلاء فرنسيون وإنجليز، ثم وجدت أحد الجنود يكتب في مفكرته شيئًا يبدو أنه يكتب مذكراته، فانتبهت في بداية الورقة

أن التاريخ منتصف أغسطس عام ١٨٠١م، عندها أصابتني الصاعقة، فاقتربت منه قائلة:

- هل هذا التاريخ هو تاريخ اليوم؟.

ولكنه لم يسمعني، أو بالأحرى لم يرني، عندها عرفت أنني أنا الخيال أو أنا الحاضر وهم الماضي.

وفجأة وجدت أحدهم خلفي يضع يديه على كتفي من الخلف، فالتفتُّ مسرعة له وكنت أتصبب عرقًا من الخوف والارتباك، واتسعت عيناي فوجدته عجوزًا بلغت معه الشيخوخة ذروتها، يرتدي ثوبًا متهالكًا، له عينان كعيني الصقر، ويبدو من هيئته أنه متعب ومنهك، كنت أنظر له وأنا في ذهول، فهو الوحيد الذي يراني. وأطبق الصمت على شفتاي، ثم قطع هذا العجوز صمتي قائلًا:

- تَسْعَيْن خلف ماضٍ فنى ولا تحاولين اكتشاف حقيقة زمانك؟

نظرت له ولم أفهم ماذا يقصد، وقلت له:

- أنت الوحيد هنا الذي تراني وتسمعني وتلمسني، قل لي أين أنا؟ ومن هؤلاء؟ أو كيف أتوا إلى مدينتي؟

نظر إلي ثم وجَّه نظره إلى الشمس التي ترسل قيظها وأشعتها عليَّ في عرض البحر معلنة عن الرحيل، وقال لي:

- اتبعيني وسأخبرك بكل شيء.

ثم اتجه صوب الشاطئ واستدار لي وقال:

- أترين تلك السفن الراسية في عرض الشاطئ؟

ثم أشار بإبهامه صوب امرأة تصعد إلى إحداها حاملة طفلًا، فحركت رأسي له بأنني أراها، ثم أشار على رجلٍ بجوارها خمسيني العمر قصير القامة ممتلئ الجسد ذو شارب طويل، وقال لي:

- هذا الذي يصعد معها قائد الجيش الفرنسي وهو زوجها، بعد قليل يا صغيرتي ستمتلئ تلك السفن بهؤلاء الفرنسيين ذوي البذلات الصفراء.

ثم أشار إلى المنارة «منارة الإسكندرية» وأكمل:

- وستعلن تلك المنارة بنورها البراق تنظيم تحرك السفن بجوار بعضها.

كنت استمع له وبداخلي سباق لمعرفة كل شيء، ولكنني لم أقاطعه، قطع هو حديثه ومد يده المرتعشة نحوي قائلًا:

- أترين هذا الخط المتعرج؟

- نعم.

- هذا هو الطريق بين زمني وزمنك.

فتعجبت متسائلة:

- كيف؟

- ولماذا لا تسألينني كيف عُرج بيننا؟

فصمت قليلًا، فأكمل قائلًا:

- اسمعي يا عزيزتي، عرج الزمان بيني وبينك حتى أوصلك لي مرة أخرى، وكتب أول الخط بيني وبينك بزيف، فبعودتي تحرريه من اعوجاجه، أنا يا صغيرتي الماضي بأمجاده وحضاراته وجوارحه، شهدت من العزة ما شهدت، وكُتب عليَّ الذلّ والهوان فترات أخرى، حتى ظننت بأن العقود بعوارها لا تمر؛ جئتِ لي من الألفية الثالثة لتبحثي عن ماضٍ زُيِّف في القرن الثامن عشر.

أصابتني الصدمة، وقلت له:

- هل أنا في لقاءٍ مع الماضي؟ فحقًّا لقد بحثت عن ماضٍ يؤرقني ولكنني لم أظن أنني سألتقيه!.

أردف قائلًا:

- أعلم أنك تبحثين عن تلك الفتره من تاريخي.

- أنا لا أبحث عن تلك الفترة بالتحديد، أنا أبحث عن حقيقة امرأة أهملها التاريخ، وأريد فقط تحرير ماضيها من الزيف.

- وها هي الآن أمامك على تلك السفينة تحمل طفلها ومعها زوجها.

قلت له وأنا مذهولة:

- هل هذه زبيدة ابنة محمد البواب الميزوني؟

أجابني وهو يهم بالرحيل:

- نعم، هي أمامك الآن.

أسرعت خلفه وأمسكته من طرف جلبابه البالي، وقلت:

- أين ستذهب؟

فاستدار لي قائلًا:

- سأعود إلى مثواي، فقد وصلتِ لغايتك، ورأيتي من تبحثين عنها.

قلت له متلهفة:

- أنا غايتي أن أعرف ما قبل تلك اللحظة التي أنا بها الآن وما بعدها، قُدْني إلى الحقيقة.

نظر إليَّ طويلًا، ثم قال:

- وهل حقيقة ماضيك ستنقذ حاضرك؟

نظرت له وكُلِّي ألمٌ ولساني تتبعثر منه الكلمات، وحاولت جمع شتات نفسي لأجيبه، ثم قلت له:

- حاضرنا مشوه ومزيف وهو أمام أعيننا، نحن جيل أرهقه البحث عن الحقيقة، لعل الماضي بمجده وعزته وجراجه وآلامه وفوضاه يملأ ما نقص من عزتنا».

obeikandl.com

أنهيت كلماتي فوجدت عينا العجوز تلمعان، ثم أخرج منهما بريقًا أضاء السماء، ثم طرق الرعد سمعي، وأمطرت السماء بغزارة، التفتُّ حولي لأجد السفن تعلن برأيتها التحرك في عرض البحر، قال العجوز:

- هؤلاء يا صغيرتي الفرنسيون يرحلون على سفن وفرقاطات الإنجليز بعد أن تحطم أسطولهم البحري بالكامل، وتقطعت كل سبل الوصول إلى الغرب بهم، وضاق بهم المكوث بمصر، وتمكن الطاعون الأسود منهم.

ثم حملني العجوز على أجنحة الخيال صوب مدينة، ثم قال:

- طِرتُ بك ستين ميلًا من ثغر الإسكندرية إلى ثغر رشيد، ورشيد هي مدينة حكايتنا لب الحقيقة.

ثم أكمل:

- تلك يا صغيرتي الوردة البيضاء، فانظري إلى الحدائق التي تحيط بنا من كل جانب، لقد خلبت الوردة البيضاء لب الرحالة والمؤرخين عبر الزمان، فأبدعوا في وصف مزراعها ومنازلها وحدائقها وأهلها، انظري لتلك المنازل المشيدة على نهر النيل، والإبداع المعماري في تشييدها، تتبعي بنظرك تلك الأراضي الزراعية بلونها الأخضر البراق، ورائحة الطمي وصوت الكراون وتجول أبي قردان صباحًا ومساءً، حقًّا يا طفلتي لم يخطئ الرحالة «سونيني» عندما أطلق عليها (حديقه مصر). انظري لتلك القلعة المشيدة هناك على أطراف النيل، تلك يا عزيزتي القلعة التي شيدها القائد قايتباي، وهناك في عرض البحر إنها عمرة السلطان الظاهر بيبرس البندقداري أحد السلاطين المماليك، والذي بأسفلها برج عمَّره صلاح الدين بن عَرَّام، أما هناك على الجانب الآخر برج المراقبة، الذي أنشاه القائد المملوكي فيروز العرامي. هنا رشيد بلد المليون نخلة، الوردة التي يلتقي عندها البحر بالنيل، كانت مطمعًا لكل غازٍ وهدفًا شخصيًا لكل قائد أراد تخليد ذكراه، خيراتها وطيب العيش بها، جعل لعاب كل أجنبي يسيل شهوة من أجلها، ولكن الزمان كان شاهدًا على خلودها.

كنت استمع إلى العجوز وأنا أمتع نظري بجمال تلك الوردة، ثم قلت له:

- سمعت كثيرًا عن جمالها، ولكنني الآن أراها بعيني، حقًّا إنها جنة الله على أرضه كما وصفها الشاعر علي الجارم-أحد أبنائها-في قصيدة يقول فيها:

أرشـــيد وأنـــت جـــنة خلـد لو أتاح الإله في الأرض خُلدًا

حين سموك ورده وهي الحسن وورد الخـــدود لو كُـــــنَّ وردًا

اقتادني العجوز إلى داخل شوارع المدينة الضيق منها والواسع، ثم أخرجني إلى شارع عظيم الطول مليء بالمنازل والمارَّة من النساء اللاتي ترتدين ملابس فضفاضة وواسعة، ويكسو وجوههن برقع لا يظهر منه إلا أعينهن المكحلة، ورجال يرتدون عباءات تحتها جلابيب وبرءوسهم عمامات، وأطفال ينتظرهم العمر، وشيوخ ذهب معهم الزمن. قال لي:

- هذا الشارع اسمه شارع البحر، واستكمالا له شارع المحلي، وبنهايته هناك مسجد المحلي عظيم المئذنة.

ثم أكملنا إلى شارع مجاور به مسجد يشبه الجامع الأزهر في حجمه والفضاء الذي أمامه، وبينما كان يخرج منه أحد الشيوخ ملتفًّا حوله مجموعة من الطلبه؛ استدار العجوز ناحيتي قائلا:

- هذا يا صغيرتي مسجد الشيخ زغلول أحد شيوخ الأزهر في عهد الدولة الأيوبية.

ثم أكملنا جولتنا حتى دخلنا شارعًا عظيم الطول، فقال العجوز:

- هذا يا عزيزتي شارع دهليز الملك، في أوله النيل والحدائق، وتلك البنايات الشاهقه التي تمتاز بمشربياتها وشبابيكها المزخرفة.

فلما وصلنا لمنزل شاهق الارتفاع، يتكون من أربع طبقات، ويتميز بمعماره العثماني الممزوج بالمغربي؛ قال لي:

- هذا منزل الحُكم، منزل حاكم رشيد عثمان خجا، ومن بعده سيكون منزل الجنرال مينو.

ثم مررنا بمنازلٍ لكبار التجار والعلماء، بجوارها منازل لليهود من الإيطاليين والإنجليز. ثم توقفنا أمام منزلٍ جميل التشييد، مشيد على الطراز العثماني، ونظر العجوز إليَّ قائلا:

- هذا منزل حكايتنا الذي تبحثين عنه.

قلت له في دهشة ممزوجة بالسعادة:

- منزل زبيدة الميزوني؟!

رد عليَّ وهو يهم بالدخول وأنا أتبعه:

- نعم، هذا منزل السيد محمد عبد الرحمن البواب الميزوني، بناه جد زبيدة قبل مولدها بأكثر من خمسين عامًا، بناه كسبيلٍ للمارة والعمال العاملين بمضرب الأرز الخاص به، ثم ورثه أبو زبيدة وأكمل بناءه وسكن به.

المنزل مُكوَّن من أربع طبقات: الطبقة الأرضية بها حجرة صهريج المياه، عندما صعدنا درجات السلم التي كان عددها خمسة وعشرين درجة صعودًا إلى الطبقة الأولى التي بها بعض الغرف المفروشة بأجود أنواع المفروشات الرومية، كل المقاعد والأسرة بها تجود بأفخم المفروشات، وأجمل ما لفت نظري هي الشبابيك المكونة من مصبغات في تقطعات حديدية، بها سحر وجاذبية لا تمل العين من النظر إليها. ثم قال لي العجوز:

- إن هذه الطبقة مخصصة للقادمين من كبار الزوار: التجار والأعيان والشيوخ وغيرهم؛ حيث إن الحاج محمد البواب من كبار أعيان رشيد وتجارها؛ لأنه يمتلك أكبر مضرب للأرز في شارع البحر.

ثم صعدنا إلى الطبقة الثانية التي لا تقل جمالًا وبهاءً عن الأولى في حجراتها ومفروشاتها ومشرباتها البارزة من الخرط الميموني، وبهذه الطبقة يوجد الجناح الخاص بزبيدة، وفي حجرتها كل أنواع المفروشات الحريرية المزركشة، تغطي سريرها والدكك والمقاعد. وعندما وصلنا إلى الطبقة الثالثة قال العجوز:

- هذه الطبقة يا صغيرتي هي الأخيرة بالمنزل، وترين جمال الحجرات واتساعها وتلك الشبابيك كسابقتها من الخرط الميموني.

ثم اقتادني إلى إحدى الغرف وقال:

- تلك حجرة الأغاني، وفي الواجهة هناك الحمام المخصص للمنزل بأكمله.

وبينما أمتع نظري بالمنزل وطرازه، سمعنا صوتًا من الأسفل، فنظر العجوز إليَّ قائلًا:

- ستسمعين كل الحكاية وترين كل شيء بعين الحقيقة، ولن يراكِ أحد.

كانت تلك الجميلة ممتلئة الجسد قليلًا، لها عينان متسعتان، بياضها ناصع كالبدر في تمامه، لها سحر في الابستامة يجعلك تطيل النظر إليها كثيرًا، ترتدي ثوبًا من الحرير المزركش، ثوبها فاقع الخضار كأنه حديقة، إن لم تكن هي الحديقة ذاتها، اتسع الثوب من عند خصرها إلى نهاية قدميها، وضاق عند معصميها، بينما كانت ضفائرها تنسدل على كتفيها وتصل بطولها حتى منكبيها. انطلقت مسرعة في دلال ومرح صوب رجل ستينى يصعد درجات السلم قائلة:

- أبي، حمدًا لله على سلامتك.

فاقترب منها وقبَّل جبينها قائلًا:

- اشتقت لك صغيرتي.

ثم جلسا سويًّا على إحدى الأرائك، فقدمت الجارية مسعودة مسرعة باسمة قائلة في سرور:

- حمدًا لله على سلامتك سيدي.

فردَّ عليها:

- سلم الله حالك يا مسعودة»، اجلبي لي كل الأمتعة بالأسفل، فقد جلبت لكم من أرض الحجاز بخورًا وماء زمزم وأقمشة حريرية، دعينا نوزع بالتساوي بينكم، ما عدا زبيدة فلها النصيب الأكبر.

فجأة قدمت امرأة خمسينية هز صوتها أرجاء المكان قائلة بثرثرة:

- وهل لك من معشوقة غيري يا حاج محمد؟

فدوت ضحكاتهم، ورد البواب:

- أقصد أن زبيدة الحبيبة وطفلتي الأولى، وأنتي معشوقتي يا فاطمة.

مرَّ هذا النهار بمرحه وبهجته، ثم أتى الليل حاملًا قمره المنير، يرسل بريقه على نافذة زبيدة، فتنعكس أشعته على وجهها فتزيده نورًا ونضارة، بينما هي شاردة وبيدها كتاب أشعار وقصائد للشيخ عبد الله البربر الذي يقطن بجوارهم، وقد دفع إيجار المسكن عنه أبوها، فداوم على مهاداتها بالأشعار لبريق جمالها، وتودُّدا لأبيها مفرط العطاء، ومن أجل ذلك قال عنها:

الحُسن كله في رشيد ببيتٍ وإن كنت تنكر اسأل البواب

داومت زبيدة على تكرار البيت لنفسها ثم قالت محدثة نفسها:

- هل حقًّا الحسن كله في وجهي كقول البربر؟ هل فتيان المدينة يتهافتون على بيت البواب من أجل حُسن ابنته أم من أجل ماله؟ هل أحدهم أغرم بها أم أغرم بالجاه والمال؟

ثم صمتت قليلًا وقالت لنفسها:

- جميعهم متشابهون، من أغرم بي من أجل المال، كمن أغرم من أجل حُسني، فهلاكا للحب والغرام الممزوج بعلة.

ثم أغمضت عيناها، وبقى عقلها في صحوة، فكثيرا ما تغفو أعيننا وتبقى عقولنا مبصرة للواقع تفكر فيه.

أتى الصباح مرسلًا أشعته على شوارع رشيد ومينائها، وازدحم شارع البحر بالمارة من التجار والصيادين والشيوخ. يعج هذا الشارع الطويل بمضارب الأرز، وبرز أكثرهم شهرة، مضرب الحاج محمد البواب. قدم البواب إلى المضرب، ثم جلس يتناول قهوة الصباح التي قدمها له العبد الصغير سرور، الذي داوم على تقديم القهوة صباحًا له، ثم الذهاب لقضاء احتياجات سيدته

فاطمة، والعودة مرة أخرى لخدمة سيده. وبينما البواب يتناول قهوته ويراجع بعض الحسابات التي سلمها له حسين أفندي شهبندر التجار، مرَّ عليه الحاج أحمد جاويش العسَّال، وهو زوج خالة زبيدة، ولديه مضرب أرز بآخر شارع البحر، يعهد بمهامه لابنه محمود طالب الأزهر. ألقى الحاج أحمد السلام عليه وجلس في مقابله، فتحدثا ببعض أمور التجارة وأحوال العسال المالية بعد ارتفاع مديونيته، ثم بدءا الحديث عن أحوال محمود ابنه، فقال له:

- سيرحل محمود عما قريب لاستكمال دراسته بالأزهر، وسيتركني وحدي غارقا بهمومي ومشاكلي.

- لا بد لك أن تزوجة قبل رحليه، لعلك تحظى بحفيدٍ يعوض غيابه.

فنظر العسال بمكرٍ وقال له:

- عروسته فطرت قلبه ولا تبالى، فهلا ساعدتنا للفوز بها.

- إن القلوب تهوى ما تشاء بأمر الله، والله يمنح الحب لمن يشاء، كما يمنح الطير رزقها، فكيف لنا أن نجبرها على شيء لم ترزق به؟

هزَّ العسَّال رأسه، إيماءً منه بالموافقة على كلام البواب، ثم حمل نفسه على رِجليه ورحل. وهنا قال لي العجوز:

- لقد سعى محمود كثيرًا لكي يخطف قلب زبيدة، وسعى العسال معه أن يفوز ابنه بذلك، ولكنهما فشلا؛ لأن قلب زبيدة مثل المهرة الجامحة لا يقدر أحد على اقتياده.

ثم أكمل ونحن عائدين إلى منزل الميزوني: «تلك الجميلة حسناء رشيد وأميرتها لن يكتب عنها التاريخ أنها فتاة عادية عاشت وترعرت بمدينة النيل والبحر فقط، وتزوجت رجلًا عاديًا، بالطبع سيكتب التاريخ عنها ما أكثر من ذلك».

أنهى كلامة بينما اهو يقتادني عائدين إلى بيت البواب مرة أخرى.

***

الفصل الثاني

نُبُـوْءَةُ عَـرَّافَـةٍ

صعدنـا إلى الـدور الثانـى بالمنـزل، بينـما كانـت زبيـدة وفاطمـة تجلسـان بالطحطابـوش المخصـص للنسـاء، تسـتضيفان جارتهـا السـيدة حسـيبة غـزال، زوجـة تاجـر الصابـون والدخـان الحـاج غـزال مسـتحفظان. حُرمـت حسـيبة صاحبـة الخمسـة وثلاثين عامًـا مـن الإنجـاب، ممـا جعلهـا تلجـأ لجميـع الحكمـاء في المحروسـة ومـا حولهـا، لتعـرف مـا إذا كانـت العلـة منهـا أم مـن زوجهـا، لكـن دون جـدوي، حتـى أبـواب العرافـات والعرافـين ضاقـت مـن سـؤالها. جلسـت زبيـدة بجـوار حسـيبة، نظـرت لهـا حسـيبة بحنـان قائلـة:

- تمنيـت كثـيرًا أن يكـون لي ابنـة في حُسـنك وجمالـك، لكـن أمـر الله أقـوى منـي.

ثـم لم تتمالـك نفسـها وترقرقـت الدمـوع مـن عينهـا، فهمَّـت فاطمـة بالجلـوس بجوارهـا، ومواسـاتها وتلطيـف الأجواء.قائلـة لهـا:

- وهـل مـن لديهـا ابنـه كزبيـدة سـيجد الراحـة؟ وغـير ذلـك، زبيـدة تبلـغ مـن العمـر ثمانيـة عـشر عامًـا، لا يجـوز أن تصبـح ابنتـك هـي أختـك.

فتغير وجه زبيدة خجلا، ونظرت لأمها فاطمة، فردت حسيبة:

- ولما لا ترين الراحة مع بدر مثلها؟

قالت فاطمة:

- بلى، هي كالبدر فى كماله، نورها يلمع في عين الرائي لها، ولكن هل يوجد قمر لا تضمه السماء؟ زبيدة بحاجة إلى رجل يضمها، عكوفها عن الزواج يحزنني.

فردَّت حسيبة:

- لعل أحدهم افتعل سحرًا أو عملًا يمنع عنها الرزق، لا بد أن تذهب إلى العرافة لترى ما بها.

فضحكت فاطمة قائلة:

- تعبت معها، فهى ترفض الذهاب معي إلى العرافة.

فأسرعت حسيبة بالقول:

- ولم لا نأتي بالعرافة إلى هنا؟

فردَّت زبيدة والخجل يمتلكها:

- أمي، أنتي وخالتي حسيبة تجادلان بأمر كتبه الله لي، وسأكون يومًا ما زوجة لمن يريده.

ردَّت حسيبة:

- حبيبتى، العرافون والعرافات كشف الله عنهم الحجاب، ورأوا من الغيب ما نعجز نحن عن رؤياه. على كل حال قضي الأمر، وسنرسل في طلب العرافة مبروكة أحسن العرافات بالمحروسة كله، ولديها من العلم بالغيب كعلم سيدنا الخضر به.

قالت فاطمة وهى تبتسم:

- هذا ما سعيت له دومًا معها، لعل كرامات مبروكة تأخذ بيديها.

ردَّت حسيبة:

- أظن أنك لن تفلتي هذه المرة، فستأتي العرافة إلى بيتك، ولا توجد عندك حجة.

ضحكت زبيدة قائلة لها:

- لا، لن أفلت، لعل كرامات مبروكة تنالني مثلما قالت أمي وينكشف الغيب.

وسرعان ما أرسلوا العبد الصغير سرور في طلب مبروكة التي تقطن بجوار مسجد زغلول، بينما كانت زبيدة شاردة، وبعينها آمال لا يراها إلا المحروم من الحب، في جلسة صمت عن الحب، يحضر بها فقط ضجيج عن الزواج.

حضرت مبروكة، سيدة خمسينية يبدو عليها الحكمة والرشد، وجهها يسرد تفاصيل زمن مر عليه بلا رحمة، ثوبها أسود قاتم كالزمن الذي مر عليه، وعلى غير عادة فقراء مصر كانت ترتدي قباقب من الخشب. رحبت بها حسيبة ترحيبًا حارًّا، فقد اعتادت الذهاب والإياب إليها، ومسحت بيدها على كتفها وكأنها تريد بركاتها، ثم جلست مبروكة بجوار زبيدة، بينما كانت فاطمة ترحب هي الأخرى بها قائلة:

- أهلا بك شيخة مبروكة، فطالما وطأت قدميك المباركتان منزلنا المتواضع سيقدم الخير.

ردَّت مبروكة وهي تبتسم بسمة خبث:

- أعرف يا فاطمة بأنك تريدين النصيب الأكبر من البركة لزبيدة.

فردَّت فاطمة وهي مندهشة:

- نعم يا مبروكة، أقصد يا شيخة مبروكة.

قالتها وهي تتلعثم بالكلام وتبتلع ريقها بصعوبة، وكأنها تقول لنفسها:

- كيف عرفت أننا نريدها من أجل زبيدة؟

قلت للعجوز:

- لا عجب من أمر هؤلاء العرافين والعرافات، قد يأتوك بما يناسب عقلك وفكرك، وحينها ستكون مجبر للانصياغ لتصديق أمرهم.

أكملت حسيبة الحديث قائلة:

- مبروكة متى سينقطع حبل وحدة ابنتنا زبيدة، ويتصل حبل الأُنس؟

نظرت لها مبروكة وهى مبتسمة ثم قالت لزبيدة:

- اعطني كفك.

فمدت زبيدة يدها لها، أطالت النظر بكفها وهى تتمتم ببعض العبارات. ثم قالت لها:

- لكي يا زبيدة من الغيب أمرين: أولهم مفرح لدرجة أنك لن تصدقي أنه سيحدث، والثاني محزن إلى درجة أن هلاكك معه.

فانتفضت زبيدة خائفة وقالت لها:

- أخبريني عن المحزن.

فقاطعتها حسيبة:

- دعينا من الهم، أخبرينا يا مبروكة بالمفرح.

ردت مبروكة:

- استمعي إليَّ جيدًا واعلمي أن نبوأتي صادقة، أما أمرك من الفرح فسوف تنالين الحب بعد وجع، سيمتلك قلبك أحدهم، بعد أن تهربي من آخر، أما من سيمتلك قلبك فسيحكم الشرق وتحكمين معه، وسيمتلك الغرب وتصبيحن ملكة الغرب والشرق.

هللت فاطمة قائلة:

- بركاتك تحل على روح طفلتي يا مبروكة، تدرين لو حدث ذلك سأهديكي وزنك ذهبًا.

فردت مبروكة:

- سيحدث، وعندها أريد نصيبي من الحكم، أن أحكم رشيد.

فردت حسيبة:

- تحكمى رشيد كلها؟ قولى حتى شارع البحر.

ثم قطعت زبيدة كلامهم قائلة لها:

- ما الأمر الثاني؟

فتغير وجه مبروكة، وزالت منه الابتسامة، وردت قائلة:

- ستصبحين شريدة في أرض لا تعرفينها، وسيمتلئ جوفك من هواء الغربة، ستدخلين من بوابة الغرب سعيدة، ولكن بعد قليل ستمشين على شوك يجرحك، وتعتصرين ألما وحزنًا في ذلك الطريق.

اتسعت عينا زبيدة خوفًا، وتغير لون وجهها إلى الشحوب، ومرت دقائق قليلة ساد فيها الصمت، وكان عقل زبيدة هو المتحدث الوحيد، يضج خوفًا من المقدر وخوفًا أن تتحقق نبؤءة مبروكة.

قدم تابع حسيبة يخبرها بأن السيدة زهرة زوجة عثمان خجا حاكم رشيد بانتظارها مع ضيفتها السيدة نفيسة زوجة الحاكم مراد بك. همَّت حسيبة بالرحيل صوب منزل حاكم رشيد، وهممت أنا والعجوز خلفها، فقال العجوز:

- الضيفة القادمة هي السيدة نفيسة، فمن لا يعرفها عبر كل تواريخ مصر القديمة والحديثة، فهي السيدة الأولى عبر كل العصور، في عصرنا هذا هي زوجة مراد بك حاكم مصر، وبعد ذلك هي الملكة نازلي، ثم تارة تكون السيدة جيهان السادات، وتارة سوزان مبارك.. إلخ.

فضحكت ساخرة قائلة:

- فهمت قصدك، السيدة الأولى، تتكرر عبر كل فترات التاريخ.

فأكمل قائلًا:

- السيدة نفيسة زوجة مراد بك الحاكم المشترك مع إبراهيم بك، حيث قصوره الفخمة، فتارة تجدينها في قصر الروضة صيفا، وتارة أخرى بقصر الذهب بجزيرة الذهب شتاءً، وأغلب الأحيان بقصر قايماز بالعادلية. كل تلك القصور وأكثر يملكها زوجها، هذا غير قصر الأزبكية الذي ورثته عن زوجها السابق علي بك الكبير، فامتلك مراد كل تلك القصور مقاسمة من أموال العامة والفلاحين، بجمعه الضرائب الباهظة من عامة الشعب.

- وهل نال الضرائب وحده؟

- يا صغيرتي، من الطبيعي أن تنال الحاشية من الحب جانبًا، فقد حرص مراد وإبراهيم على ضم الأمراء المنشقين عن السلاطين المماليك، حتى يكون لهم حصن منيع من المقاتلين، فإذا انقلب الشعب عليهم يكون هؤلاء الأتباع بظهرهم كالسد الحامي لهم من فيضانات الكادحين، فتجدين على بك الملط يَنعم بأراضي الصعيد ورعاياها من الفلاحين والكادحين، وسليمان بك الشابوري ينعم بأراضي الوجه البحري، يقاسمه فيها عبد الرحمن بك عثمان، فقد عكف هذا الظالم مراد على مواساة المماليك أتباعه في هفواتهم، وسامحهم في زلاتهم وحظى عنده كل جريء غشوم ظلوم، فانقلبت أوضاعهم وتبدلت طباعهم، وتشرهت نفوسهم، وعلت رؤوسهم، فتناظروا وتفاخروا، وطمعوا في كل ثمين، حتى الشعراء امتدحوه كي ينالوا من الغنيمه جانبًا. يا عزيزتي هذا الظالم أخذ الشيء من غير حقه وأعطاه لغير مستحقه.

كنت استمع إلى العجوز وبداخلي غِلًّا من ذلك الظالم الناهب لثروات الكادحين، وشردت قليلًا في زلات التاريخ وتكراره لتلك الشخصيات.

كنا بمنزل زهرة زوجة عثمان خجا نشهد على فرط ترحابها بضيفتها الجالسة على أريكة ضخمة ولينة الحشو من ريش النعام، مكسوة بالحرير المزركش، يحيط بها مجموعة من الجواري السود والبيض، تتفاوت أعمارهن بين العشرين وأقل، بدت نفيسة بهيئة ملوكية بزيها العثماني وجسدها الممشوق وعينيها الزرقاويتين كلون البحر، بينما زهرة التي بدت أن الله منحها الطول وحدها دونًا عن النساء حتى إنها كانت تخفض رأسها عند دخول الحجرة، وخدمها يقدمون ما لذ وطاب من أطعمة ومشروبات لنفيسة.

وعن حسيبة التي أتت مسرعة تفرط في ترحابها وسلامها، مثنية على قدوم نفيسة لرشيد، مطالبة إياها بقبول دعوتها لحفل ترحاب يليق بها، فما كان من نفيسة إلا أنها قبلت الدعوة، فقد عُرف عنها بساطتها وعفويتها وتعاملها الحسن مع الجميع.

زبيدة بحجرتها شاردة، جسدها ملقي على الأريكة، وعقلها طائر من النافذة يفكر بنبوءة مبروكة، وبينما هي شاردة دخلت عليها فاطمة، جلست بجوارها، ثم قالت لها:

- تدرين يا زبيدة، إن قلبي فرح كثيرًا من كلام مبروكة، وأشعر أنك قريبا ستزفين لأميرك.

ابتسمت زبيدة وقالت:

- هل تظنين يا أمي أن هذا الأمير سيفوز بقلبي حقًا؟

- صغيرتي، إن الحب لن يكون أهم الأمور بحياتك، قطعًا ستحتاجين له، ولكن الأمان والاحترام والقوة هما الأهم، كنت أحب عمك حسن البواب كثيرًا قبل موته، ولكن الفقر والحاجة أذاقوني الويلات أنا وأخيك «علي الحمامي» حتى مات، واهتم بأمري أبوك بصفتي زوجة أخيه، ولكنه كان يحبني فتزوجني وعشت معه بأمان ممزوج بالمودة والخير.

ابتسمت زبيدة ولمعت عيناها ثم قالت لها:

- أمي، إن أبي أعظم وأنبل الرجال، ليتني أجد من يشبهه، فكم أنت محظوظة يا أمي بزوج مثله!

ابتسمت فاطمة ثم قالت لها:

- سعدت كثيرًا بخبر رحيل محمود العسال للمحروسة، أخبرتني خالتك بأنه سيعقد خطوبته الأسبوع المقبل قبل رحيله.

- حقًّا يا أمي، لعله ينسى أمري.

دخل العبد سرور مسرعًا، فنهرته فاطمة قائلة:

- كم مرأ أخبرتك أن تطرق الباب قبل الدخول؟

فنظر إلى الأرض خجلا، ثم قال لها:

- اعتذر سيدتي، فالعبد تابع السيدة حسيبة أحضر مرسال منها، يخبركم بأنها ستقيم حفلًا من أجل السيدة نفيسة.

ردَّت فاطمة مسرعة:

- اذهب يا سرور لمنزل حسيبة، وقل لها إننا سنكون أول الحاضرين، وتقصى منها ما ينقص الحفل لنكمله.

نظرت زبيدة لأمها، ثم سألتها:

- لماذا يسعى الحب خلف نفيسة كالطير المحلق في كل بقاع السماء؟

- أنا لم أحسد امرأة في حياتي مثلما أحسد نفيسة، خلبت بجمالها وبياضها الناصع وسحرها البراق قلوب الرجال، فكان أول فريسة لها علي بك الكبير، الذي أعتقها من الرق، وتزوجها ثم بنى لها قصرًا بالأزبكية، وما إن أعلن محمد بك أبو الذهب خيانة سيده علي بك وطلب العون من مراد بك حتى ساومه مراد على نفيسة مقابل الخيانة، وكان له ما أراد، تزوجها وأسكنها

القصـور كسـابق عهدهـا، وأورثهـا امـلاكًا أضعـاف ميراثهـا مـن عـلي، حظيـت بالحب قبل أن تحظى بالمال والسلطان، ألا أنها من أطيب وأعرق النساء بمصر؛ لحسن معاملتها وبذخها، فتجدي لها بكل ركن بالمحروسة أحبابًا ومناصرين، لعل ما غفر لها زواجها من مراد الظالم، ردتها له في زلاته وأخطائه في حق الفلاحين والكادحين.

- كل مرة أسمع فيها قصة نفيسة، أتمني أن أصبح مثلها يا أمي، فقد حظيتُ مثلها بالجمال والذكاء، فلما لايتهافت الحكام عليّ مثلها؟

- طفلتى، ستفوزين بحكم الشرق والغرب كما قالت مبروكة، سيفوق حظك أضعاف حظها.

قضت زبيدة ليلها تفكر بكلام أمها ونبوءة مبروكة، أخبرت نفسها بأنها ستكون السيدة الأولى ليس لمصر ولكن للعالم كله.

❋❋❋

obeikandl.com

الفصل الثالث

لِقَاءٌ مَعَ سَيِّدَةِ مِصرَ الأُوْلَى

أشرق الصبح على مدينة النخل، يحمل الظل لمنازل الأغنياء والتجار، والمشقة والفقر على وجه الفقراء. بمنزل عبد الباسط المزارع البسيط الذي لديه من الأبناء أحد عشر كانوا على موعد للخدمة، ظلوا يتهافتون في صحوة الصباح على منزل حسيبة، حتى يعدوا مع الخدم والعبيد اشهى وألذ الأطعمة، ومن ثم ينالوا منها القليل أو المتبقي.

أما منزل الميزوني فكان الضوء، يتسلل من المشربية ليخترق جسد زبيدة المستلقية على سريرها، معلنا عن قدر جديد سيأتيها ساعيا اليوم. نهضت على عجالة لتستعد للحفل ورؤية زوجة حاكم مصر لأول مرة بحياتها.

قلت للعجوز:

- لابد أن يسمونها كليوباترا رشيد، فجمالها طغى بريقه على نور الشمس .

فضحك العجوز قائلا:

- ولما لا تكون تماضر رشيد، زبيدة سليلة الأشراف، بنت آل بيت رسول الله ﷺ.

ابتسمت وقلت له:

- حقا، جمعت كل شيء: الحسن والجمال والمال والبهاء، وحسبها لأشرف القوم، فكيف لها أن لا يكتبها التاريخ ملكة؟

بمنزل حسيبة كانت تتراقص أمعاء الفقراء فرحة من هول ما رأت واستنشقت من أشهى الأطعمة والطيور، علت البهجة أفواه الجميع، وكأن اليوم عيد. اصطف بالجلوس حسيبة بجوارها فاطمة، يقابلها زبيدة وزهرة، وتعتلي الدكة الكبرى نفيسة وحولها خدمها كالمعتاد، ظلوا يتسامرون ويضحكون والأطعمة حولهم متناثرة في كل ركن، صوت الدفوف والطبول يعلو، والجواريبتراقصن ويتمايلن بدلال. وكانت نفيسة تنظر لزبيدة وتتمعن النظر بمفاتنها، ثم وجهت لها الحديث قائلة:

- هل ما زال قلبك عالقًا بين حلم الفارس الذي بالقصص والحكايات.

ابتمست زبيدة وردت بخجل:

- ينتظر القلب ما يريده، ولكن الله يقدر لنا من يشاء، فليس لي على قلبي سلطان.

ردت نفيسة بحكمة:

- زبيدة يا صغيرتي، سيأتيك الحب كما يأتيك الموت أينما كنت، حتى وإن بلغت من العمر أرذله، هذا مقدر الخالق، ولكنك لا بد أن تتيقني أن الزواج سنة الحياة سواء أتى بحب أو بدونه.

فابتسمت زبيدة لها قائلة:

- نعم، تلك هي الحقيقة.

فأكملت نفيسة:

- وماذا إن كان زوجك عندي؟ إنه رجل لا يقل بهاء وحسنًا عنك، ولا يزيد حسبه عن حسبك قيراطا، لديه من الجاه والسلطان ما يرضي أهلك.

تدخلت فاطمة مهللة:

- هل لنا أن نرفض من اختارته سيدة مصر الأولى.

ثم نظرت لابنتها قائلة:

- لعل القدر أطاع مبروكة.

ابتسمت نفيسة قائلة:

- لعل الحظ حليفك، إذ أخبرني منذ أيام قبل قدومي هذا الموعود صاحب السعادة بأنه يريد عروسًا بنفس مواصفاتك.

فضحكت فاطمة وقالت:

- ولم يجد أفضل من زبيدة، في كل النجوع والقرى والأقاليم، بل إن دار حول الكرة الأرضية كلها.

ابتسمت زبيدة لمبالغة أمها بمدحها، ثم قالت لنفيسة:

- أخبريني عن هذا العزيز.

اعتدلت نفيسة بمجلسها ثم قالت:

- يدعى سليم أغا نعمة الله، وهو أمير من أتباع[1] زوجي مراد بك، لديه فرقة من الجنود المختلفة الجنسيات، ولعل ما جعلني أفكر بك زوجة له أنك تمتلكين وجهًا كالأميرات ولا بد أن ينالك من يرفع من شأنك ويعلو بك لأعلى المقامات.

ابتسمت، وبدا على ملامحها القبول والرضا، فلعل نبوءة مبروكة ستتحقق. أما فاطمة فكادت الفرحة تصيبها بالجنون، وأطلقت الزغاريد، وكأن القِران قد عُقد. أما الحاضرون فكانوا في دهشةٍ من زغاريد فاطمة والسعادة التي بوجه زبيدة،

١) الانكشارية هم من جنود الجيش العثماني أو الحامية العثمانية بمصر، وكانت تضم سبعة أوجاقات منهم أوجاق الانكشارية، وهم غير فرق المماليك، حيث كان كل أمير مملوكي يتبعه عدة أمراء ولكل أمير أتباعه ومماليكه).

obeikandl.com

ولكن فاطمة تخاف الحسد فأخفت عنهم سبب فرحتها، ما عدا حسيبة التي طارت هي الأخرى من السعادة قائلة لزبيدة:

- صدقت مبروكة كل الصدق، ستصلين لمكانة نفيسة عما قريب.

مرت بضعة أيام، والسعادة لا تفارق فاطمة، الرضا ملازم لزبيدة والأحلام بعقلها تزداد، أما نفيسة فمقيمة بمنزل زهرة بانتظار قدوم سليم أغا من الأزبكية. الفخر كان يسيطر على محمد البواب، مخبرًا الجميع أن ابنته الوحيدة في انتظارها فارسًا من حاشية بلاط الحكم ليخطفها لبيت الزوجية. وكنت مع العجوز بمدخل المدينة، نتكئ على إحدى الأشجار نسارع الزمن لرؤية الفارس القادم.

قدمت من بعيد مجموعة من الجنود، يتقدمهم شاب عشريني وسيم، عيناه تميل للخضرة، عريض المنكبين، يقارب طوله من تلك الشجرة التي نتكئ عليها، أما ابتسامته فتكشف عن أسنان ناصعة البياض. شردت قليلًا ليخبرني عقلي بأن زبيدة ستقع بغرام هذا الفارس، فماذا ينقصه حتى يرفضه قلبها؟ فاستدرت للعجوز قائلة:

- اكتمل كل شيء فبالتأكيد سيكتمل بداخل قلبها، لو أتيح لي لوجدته بداخلي من كماله. بينما نحن كنا خلفه، وهو يسعى طائرا صوب بيت الميزوني، كالطير الساعي خلف رزقه.

بتلك الليلة كان كل شيء دافئ ومشع نورًا وبهجة ببيت البواب، حجرة زبيدة يتسرب إليها الأمان فيملأها، أما هي كانت بزاوية من حجرتها تبدل ملابسها، لترتدي ثوبا يميل إلى الحمرة، ليس ثوبها فقط الذي كان يميل للحمرة، بل شفتاها ووجنتاها. تساعدها بربط حزام الثوب جاريتها مسعودة، بينما فاطمة تزيح عن شعرها ضفائره، لتجعله ينسدل على ظهرها. دخلت حسيبة باسمه عليهم، مطلقة بعض الزغاريد، ثم قالت:

- حبيبتي، الليلة ليلة عيد برشيد، من اليوم وحتى موعد الزفاف سنذبح الذبائح ونوزعها على المحتاجين والمساكين والمارة، بل كل من يسعد لزفافك، حتى من يمكر لك سندعوهم ليحتفلوا معنا.

ابتسمت زبيدة قائلة:

- لعل زواجي، يريح أمي وأبي مني. أشعر بأنني أصبحت حملا عليهما خالتي حسيبة، لقد سعت أمي كثيرا لترى هذا اليوم.

عندئذ استعبرت فاطمة، وقالت والدموع تسيل على وجهها:

- والله يا زبيدة، لولا أنني أردت أن أراك مثل كل الفتيات لك بيت وزوج وأطفال، ما كنت أخرجتك من كنفي.

قطعت حسيبة تَعَكُّرَ الحديث محاولة تلطيف الحوار، قائلة:

- فاطمة، هذا يوم ضحك ومرح، اتركي البكاء الآن، دعينا نتفقد ثوب صغيرتنا الجذابة، نبدع في تزيين ملامحها.

فابتسمت فاطمة، ثم ضمت زبيدة لها، بينما كانت هي هادئة يتغلبها الثبات، كأن قلبها لا يبالي بهذا اللقاء، أصبح قلبها كالآلة المعطلة التي لا تدور ولا تسعى كسابق عهدها.

بالدور الأسفل كان البواب يجلس بجوار غزال مستحفظان، يقابلة على الدكة الأخرى هذا الفارس سليم، حوله جنديان من كتيبته، تعرض أمامهم طاولة بها ما لذ وطاب من أشهى الأطعمة، سرور لا يكاد يلتفت حتى تناوله مسعودة صحن يلو الآخر من كل الأصناف. كنت أنظر لهذا الفارس وبجواري العجوز، كان يلتهم الطعام التهاما يشبه التهام الذئب لفريسته، وكأنه لم يأكل من قبل، نظر إليّ العجوز مبتسما ومتهكما بالقول:

- لعلك لم تتعلمي من دروس الحياة إشاراتها لك.

- بلى، لديك حق.

- يا صغيرتي، لا بد أن تعلمي أن قانون الحياة العادل إن أعطاك المال والجاه والجمال، لن يعطيك الرضا، بل من الممكن أن يزيد عليك الطمع.

- صحيح، وهذا الملتهم خير دليل على ذلك.

- تخيلي، برغم ماله وعِزه يأكل اللحم وكأنه يراه لأول مرة بحياته، فزواجه من زبيدة لن يقل طمعًا عن طمعه ذلك، فلما لا يزيد الثراء أكثر والحسب يكبر.

- حقًّا، كثرة المال تولد الجشع والطمع.

اجتمع الجميع مساءً بغرفة الطخطابوش: البواب تجاوره فاطمة، وغزال يلتزق بحسيبة، وزهرة بنفس مقعد زوجها عثمان، وسليم يجاور السيدة نفيسة. بينما كانت زبيدة تدخل الغرفة، تجر خلفها جاريتها مسعودة بمشروب الشربات وتقول لها بوشوشة:

- سيدتي، العريس خاطف للنظر بوسامته وجاذبيته.

فأشارت لها زبيدة أن تصمت وأكملت الدخول. التفت الجميع لينظروا لتلك الفاتنة خاطفة الأنظار، خاصة عين سليم التي التهمتها من أسفل قدميها التي ترتدي بهما حذاءً إيطاليا جلبه لها والدها من آخر رحلاته بجنوة في إيطاليا، مرورًا بخصرها حتى شعرها. كانت عيناه تتسع رغبه بها، فأنوثتها فتكت بروحه، ولعابه يسيل من أجلها، وكاد أن يفضح نفسه لولا تدخل نفيسة بالتحدث:

- ما رأيك يا سليم بأميرتنا؟

أجابها وهو يلهث:

- لعلي فزت بجمال أكثر مما تمنيت.

خجلت زبيدة واحمرت وجنتيها، بينما نظرات سليم لم ترحمها، ثم نهض من مجلسه وتوجه صوب البواب ومد يده له، فهنض البواب وهو يجمع جلبابه

بيسراه مادًّا يمناه له، ثم قرأوا الفاتحة جميعا، وما إن أنهى الفاتحة بأيديهم المتشابكة، معلنان المبادلة، الأب يمنح سليم ابنته الوحيدة طواعية، ولكن قلبه يذرف دموعًا على تلك المبادلة الحلال، حتى أطلقت مسعودة الزغاريد، والسعادة تسود المكان، والفرحة تتمكن من وجوه الجميع، وسرور يمر عليهم بأكواب مزخرفة برسومات خطت بالخط العربي الأصيل، مملؤءة بمختلف المشروبات وألوانها، ثم تحدثت نفيسة بدلالها ووقارها المعهود:

- أكرم الله زبيدة بسليم صاحب القلب الطيب والعقل الراجح، فهي في حضرة فارس من فرسان بني القوة بالجسد والعقل، وأكرمك يا سليم بفاتنة رشيد، ابنة الأصول والحسب، اليوم أبارك جمعكم وأتمنى من الله إتمام الزيجة.

ثم نهضت من مجلسها، واتجهت صوب زبيدة وخلعت عن رقبتها كردانًا لتلبسه لزبيدة، فنهضت زبيدة في كبرياء وثبات ونفسها تحدثها بأنها ليست أقل شأنا من نفيسة، فألبستها إياه قائلة:

- أرجو أن تقبلي هديتي المتواضعة.

ثم اتفق البواب وسليم على ميعاد الزفاف ومراسم تجهيز الحفل، وطلب البواب من سليم أن يقيم معه بالبيت وسيخصص لهما دورًا كاملًا للعيش به، فوافق بالطبع. وتكفل البواب بمصاريف الزواج كلها، وحدد الموعد في غضون أيام من تلك الليلة.

***

الفصل الرابع

زِفَافٌ إِلَى جَزَّارٍ

جاء صباح اليوم التالي على رشيد الفائزة بالنصيب الأكبر من السفن التجارية، المحملة بالبضائع من جميع أنحاء العالم، فتارة تمر السفن وترسو على مينائها، لتحمل البضائع من الأرز أو القمح لتصدرهما لدول أوربا الشرقية والغربية، بل جميع أنحاء العالم. وتارة أخرى ترسو السفن لتفرغ، حمولتها من البضائع. قال العجوز لي وأنا أشاهد ازدحام الميناء بالسفن:

- فى عهدك يا صغيرتي يوجد أهم ممر ملاحي تجاري في العالم، قناة السويس، أما في هذا العصر فتعتبر ميناء رشيد بمثابة قناة سويس عصركم، فهنا يربط بين النيل والبحر، وهو المرسى الأكبر، والفضل يرجع له في انتعاش التجارة العالمية، فهو قبله أوربا التجارية.

- لو استطعتى معى صبرًا، سأخبرك بأن الفرنسيين عند قدومهم، سيفكرون جديًّا في حفر مجرى ملاحي هو قناة السويس، وجعله أكثر أهمية من ميناء رشيد.

- لا يهمني هذا، أنا متشوقة جدًّا لحفل الزفاف.

أشار بإصبعه على أحدهم وهو ينزل من إحدى السفن، ثم قال لي:

- هـذا عـلي الحمامـي أخـو زبيـدة مـن أمهـا، وابـن حسـن البـواب أخـو محمـد البـواب زوج فاطمـة الأول، وهـو عائـد مـن رحلـة تجاريـة إلى مدينـة جنـوة الإيطاليـة.

كان عـلي يرتـدي زي الأفنديـة، يعلـو رأسـه طربـوش الأفنديـة الأحمـر، وتبـدو عليـه الوجاهـة كشـباب عـصره، قلـت للعجـوز:

- لا بد أنه سيفرح كثيرًا لزواج أخته.

فابتسم ابتسامة بلهاء، وأكملنا طريقنا صوب بيت الميزوني.

كانـت منـيرة الخياطـة تغـرق في تفاصيـل جسـد زبيـدة لتتحـرى مقاسـات خصرهـا، بـل جسـدها كلـه، تفـترش الأرض ومعهـا أجـود وأفخـم أنـواع الأقمشـة الحريريـة، بينـما كانـت فاطمـة تتفحـص أقمشـة أخـرى عـلى سريـر زبيـدة لتختـار منهـا كسـوة ابنتهـا، ثـم انتهـت منـيرة الخياطـة مـن رفـع المقاسـات لتحمـل أمتعتهـا راحلـه، وفاطمـة تنبـه عليهـا أن تطـرز الملابـس في أقـل مـن أسـبوع قبـل موعـد الزفـاف، ثـم أخرجـت مـن بـين نهديهـا كيسًـا بـه بعـض الريـالات الذهبيـة وقذفتـه لهـا، لتلقطـه منـيرة والابتسـامة تعلـو وجههـا.

وبينما تخرج منيرة، كان سرور يدخل مسرعًا وهو يلهث ويقول:

- لقد جاء.

فبادرته فاطمة بالقول:

- خذ نفسك وقل لى من جاء؟

فبدأ يهدأ قائلًا:

- لقد جاء سيدي علي الحمامي.

صاحت زبيدة في فرحة:

- علي؟ حقا يا سرور، أتى علي؟

فرد سرور وهو مازال يلتقط أنفاسه:

- نعم، سيدتي لقد رافقته من عند السبيل الكبير، وقدمت مسرعًا لأبشركم.

أسرعت زبيدة تقفز درجات السلم بعجالة، واتجهت صوب الباب لتجد عليًا واقفًا يستعد للدخول، فتح علي ذراعيه عن آخرهما واحتوى زبيدة بداخلهما، بينما هي تضحك بصوت عال وتقول له:

- لقد تمنيت بالأمس أن تأتي، فأستيقظ لأجدك أمامي الآن.

فضحك علي وهو يقبل رأسها، قائلًا:

- هل اشتقت إلي بهذه السرعة؟

قطعت فاطمة تلك اللحظة، وأتت مهللة وهى تتجه لتحضن عليًا وتقول:

- علي ابني، حمدًا لله على سلامتك.

لم تنتظر فاطمة ليجلسوا، فبادرت بالقول:

- علي، لقد عُقدت خطبة زبيدة بالأمس.

فاندهش علي، قائلًا:

- حقًّا، ومن سعيد الحظ؟

فردت فاطمة بكبرياء وفخر:

- وهل لزبيدة أن تزف إلا لسعيد الحظ، كبير المقام وصاحب العزة.

فاستدار لزبيدة، وعلت وجنتيه ضحكة تهكم، ثم قال:

- أتمنى من الله أن يكون خارجًا عن شلة الأنس، أو بالأحرى شلة قش الأرز أصدقاء عمي محمد.

فضحكت فاطمة قائلة:

- وماذا إن كان من شلة الحاكم نفسه.

فاتسعت عيناه وبدا على وجهه الذهول، قائلا:

- تقصدين من حاشية عثمان خجا؟

فردت بكبرياء:

- لا، بل الأعلى منه، إنه من حاشية الأمير مراد بك، لقد فازت أختك بأمير كبير من أتباع مراد بك هو سليم أغا نعمة الله.

اتسعت ابتسامة علي، ونهض من مجلسه محتضنا زبيدة، ثم أمسك بيدها قائلًا:

- أخيرًا يا زبيدة ستتزوجين من أصحاب السلطة والنفوذ، وستضيفين للعائلة جاهًا بجانب عزتنا.

ردَّت زبيدة في هدوء:

- لعل الجميع فائز بتلك الزيجة، أنت وأمي وأبي، أما قلبي فلعله يكون الخاسر الأكبر.

قالتها والكلام يختنق بحلقها، لم يؤثر حديثها بعلي ولا فاطمة، إذ أكملوا حديثهم عن العريس والزواج، وكأن قلب زبيدة لا يهمهم.

أما عقل زبيدة فكان يخبرها بأن نبؤءة مبروكة، ستتحقق، بل ظل يحدثها حتى الليل إلى أن خلدت إلى النوم.

نائمة كالفراشة القابعة بقلب الزهور، تضم قدميها على بعضهما ويداها أيضا، تقترب لوضع الجنين في رحم أمه، كأنها تحاول أن تستدعي الأمان في هذا العالم، وذلك الزمان الذي لا أمان به سوى للأطفال بالأرحام. بدأ جسدها يتصبب عرقا، ثم نهضت فجاة ونزلت من السرير، متجهة للسلم فنزلت لتفتح باب البيت وخرجت، ليكون الجو خصيمها، الغيوم تمأا السماء وتمطر ثلجا على ثوب زبيدة الخفيف وهى تجرى وتلهث بشوارع رشيد،

إلى أن وصلت للبوغاز، ليظهر سليم من بعيد متجها نحوها، ووجهه يملأه الشر، ثم أمسك بيدها واحتضنها بعنف حاملها صوب النيل ليرميها وهي تصرخ، والمياه حولها تسحبها لأسفل وصراخها يعلو عنان السماء، فجاة لاحت من بعيد سفينة، بدا منها شخص لا يظهر من ملامحه الكثير، فألقى بالشباك ليلتقط زبيدة وقام بسحبها ببطء. فجاة نهضت زبيدة من النوم صارخة، أسرعت فاطمة بالدخول قائلة:

- زبيدة، ماذا بك يا ابنتي؟

نظرت إليها وهي خائفة وجسدها يرتعد قائلة:

- حلم سيء يا أمي.

فمدت فاطمة يدها وجلبت لها قلة المياه، لتعطيها شربة قائلة:

- اشربي يا عزيزتي، فهذه كوابيس من الشياطين.

أذن مؤذن مسجد زغلول للفجر، فذهبت فاطمة لتوقظ البواب للصلاة، بينما عادت زبيدة للنوم، والقلق يتمكن منها، فتارة تنام على جانبها الأيمن، بينما جانبها الأيسر يوقظها لتنام عليه تارة أخرى.

اما أنا فأجلسني العجوز على دكة في رواق المنزل قائلًا:

- لقد تناسخت روحيكما، فلا تعجبي ولا تفزعي بأنك ترين كل شيء، حتى أحلامها.

فرددت عليه مفزوعة:

- لم أكن أعلم أن المهمة صعبة هكذا.

فربط على كتفي قائلًا:

- لا تخافي الحق والحقيقة، ولا تقربي الزيف والكذب، فاعلمي أن روحك هي المحررة لأرواح السابقين بالحق والحقيقة.

مرت بضعة أيام والأمور تسير على ما يرام، محمد البواب يجهز جناح زبيدة للزواج، أما منيرة الخياطة تجهز الملابس، بينما علي الحمامي ينظم تجهيزات الحفل، ويتفق مع بعض المطربين والغوازي. وطيلة تلك الأيام، كانت الأطعمة واللحوم والطيور تطبخ وتوزع على الفقراء والمساكين والصيادين والمارة.

٢٥ يونيو سنة ١٧٩٧م:

صباح السبت لليوم الموعود، قدمت منيرة تحمل الفساتين المفصلة، من القطن والحرير المزكرشين بأجمل التطريزات، بينما بدأت فاطمة تساعدها حسيبة في رصِّ الملابس في دولاب زبيدة، ومنيرة تهيئ ثوب الزفاف الأبيض واضعة به بعض اللآلئ من أصداف البحر لتزينه بها، فشهقت حسيبة من جمال الفستان قائلة:

- ما هذا الجمال يا منيرة، سلمت يداك وسلم صنعك.

جربت منيرة الفستان على زبيدة، وبدت كلؤلؤة مضيئة وزادها جمالًا على جمالها المعهود. بينما كان الجزار خارج المنزل يفك حبال العجل المربوط على إحدى أشجار التوت، لينحره وهو يصيح في صبيه أن يطرحه معه أرضًا، وجلبابه الأبيض قد تلطخ بالدماء، بينما لاح من بعيد علي الحمامي يتبعه صبي يجر خلفه عجلتين أخرتين، ليسلمهما للبواب مخبرًا إياه بأن عثمان خجا أرسلهما هدية الزفاف.

على درجات سلم المنزل تصعد البلَّانة الآتية من حمام زغلول، حاملة معها العدد والادوات، من أحجار كريمة وأعشاب تزيين مصنعة من خلطات معينة مضافًا لها زيوتًا وعطورًا، وكل ذلك لتجهيز العروس على أكمل وجه.

مرَّ النهار والطهاة يعدون الاطعمة الشهيه، من لحوم وطيور ذبحت وأغرقت دماؤها الشوارع، أما البلانة فتضع اللمسات الأخيرة على وجه زبيدة، بينما حلاق المدينة ينتهي من سليم في منزل علي الحمامي.

اكتظ شارع دهليز الملك بالعمال الذين ينهون استعدادت الحفل، يعلقون الزينة والقناديل على منازل الشارع بأكمله، بينما كانت فرقة حليمة الغازية والخلبوص عبد الله قد وصلت يتبعها بعض الغوازي الصغيرات. وكان الخلبوص عبد الله يرتدى بذلة رقص، مثل الفتيات تمامًا حتى كدت لا أفرقه عنهم إطلاقًا، أملس الصدر يلفظ من فمه بعض الألفاظ البذيئة، ويفتعل بعض الحركات الجنسية المثيرة والخليعة، ضحكاته كانت تعلو على صوت الطبول والمزمار.

قدمت زبيدة بثوبها الابيض الخلاب تمشى باستحياء بصحبة على اخيها، بينما قدم سليم بصحبة البواب، اصطف الأعيان والتجار والصيادين يتقدمهم بالمجلس، الشيخ على الجارم الذي انتوى اتمام عقد القران بنفسه،

جلس البواب بجوار سليم والباقون يصطفون بواجهتهم، فبدا الجارم بالتحدث قائلًا:

- اليوم نحضر حدثًا سعيدًا لرشيد كلها، نعقد قِران فاتنة رشيد زبيدة بنت محمد البواب على الفارس المغوار سليم أغا نعمة الله، الذي دفع لها مهرًا مقداره ألف ومئة ريالٍ المعجل منه ألف ريال، والمؤخر منه مئة ريال تستحق لها إن مات أو فارقها لا قدر الله، بحضور أبيها الحاج محمد البواب بصفته وكيلها، وبشهادة كل من الحاج غزال مستحفظان، وأخيها من أمها علي الحمامي أفندي، وذلك بمشهد ومرأى من أهالي رشيد الكرام، وبنهاية القول، نذكر الله تعالى، ونصلي على نبينا وخاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم.

وما إن انتهى حتى علت الزغاريد، وهزت الطبول والمزمار بأصواتها الأرجاء، وحليمة ومن معها من غوازٍ يتمايلن بدلال، والخلبوص يتوسطهم بحركاته البهوانية الخليعة. أما زبيدة فكانت شاردة وسط النساء المهللين في فرحة عارمة يتراقصن حولها، بينما عقلها يتراقص خوفًا من القادم، محدثة نفسها عن حلم الغرق، وهل سيؤذيها سليم أم لا.

وأما سليم فكان يجلس كالبغل التائة راميًا نظراته صوب حليمة الراقصة، صاحبة الجسد الممتلئ والوجه المستدير، تقترب من العقد الرابع، تملأ عينيها كحلًا يكاد يخفيها، بذلة رقصها تكشف عن ترهل جسدها وصدرها كبير الحجم كالمرضعة. بينما كان سليم ينظر إليها برغبة عارمة، ليظهر من تحت بنطاله ذلك السهم الكامن الذي كاد أن يخترق القماش من صلابته، أما هي فكانت ترمى بنظرة إغراء وهي تتمايل وتتقصع بمشيتها، فأشار لها بإصبعه أن تتبعه وهو يغمز لها بعينه.

عدَّل طربوشه الأحمر ثم مال على علي الحمامي وهمس في أنه أنه يريد أن يقضي حاجته، فضحك علي قائلًا:

- اذهب في هذا الشارع، ستجد هناك خرابةً بها حمار، بإمكانك أن تفك ضيقتك بجانبه.

فضحك ضحكة بلهاء، واستدار ليشير لحليمة أن تذهب خلفه، غمزت حليمة للخلبوص، فاتجها خلف سليم صوب الخرابة. حجرة متهدمة لم يبق منها سوى الجدران، وجزءًا من السقف، مربوط بأولها حمار يقف بجانبه سليم، يشير لحليمة بالدخول وهي تتمايل بدلال وتتمنع راغبة، والخلبوص يتحدث بالنيابة عنها:

- وما المقابل سيدي؟

- أنا لا أريدك أيها المخنث، دعنا في اللحمة البلدي، ادخلى وستنالي ما تريدين.

فضحكت حليمة بقهقة كادت أن تفضحهم من رنينها، لولا أن صوت المزمار كان يعلو عليها. دخلت للخرابة وبقى الخلبوص خارجًا يحرسهم، مرددًا بألفاظه البذئية ولهجته المعتادة:

- واحد وأربعة عليكي يا أبلتي.

بينما سليم كان أسرع من أن ينتظر، إذ فتح بنطاله ليخرج منه هذا السهم الساخن الصلد، ممسكًا بحليمة ودافعا بها نحو حائط متهالك، وبسرعة البرق أخرج نهديها خارجًا ليلتهمهما ثم طرحها أرضا كاشفًا عن هدفه، وحليمة تتأوه أسفل منه. مرت دقائق أفرغ فيها شهوته وأنهى مهمته، ثم قام ورمى على هدفها كيسًا من الريالات ليكمل تعديل ملابسه، وعدل الطربوش وخرج مبتسمًا، بينما حليمة مستلقية على ظهرها بالأرض، ليدخل علي الحمامي ويستلقي فوقها، لينال هو الآخر ما ناله سليم، حيث كان يراقب الموقف من بعيد، ودخل ليأخذ دوره، وما إن انتهى منها حتى أخذ كيس المال الذي رماه سليم على هدفها، ووضعه بجيبه وعدل هو الآخر طربوشه وخرج. بينما الخلبوص ينظر من الخارج وقلبه يختلع على أبلته.

قارب الفجر والحفل ما زال كما هو، ليبدأ المصير المحتوم من بعد الفجر. ذلك المصير الذي سيأخذ زبيدة إلى حياة جديدة، هل سيزور الحب قلبها ويجعلها على قيد الحياة، أم سيهجرها ويجعلها تنفق كالطيور؟

دخلا إلى غرفتهما سويًّا، فجلست زبيدة على طرف السرير باستحياء، مطرقة رأسها أرضًا، فاتجه سليم نحوها محاولًا خلع طرحة الفستان عنها، فأزاحت يده بعيدا في خجل، كررها ثانيًا، فابعدته مرة أخرى، عند ذلك استشاط غضبا قائلًا لها:

- ما أمرك؟

أجابته بصوت خافت:

- لا شيء، دعنا نتحدث أولا ونعرف بعضنا بعضًا.

رمى بها على السرير وأتى فوقها قائلًا:

- اتركي الحديث إلى الصباح، ودعيني أكمل مهمتي.

فقالت له بينما كانت دقات قلبها تزداد خيفة:

- دعني أبدل ملابسي أولا.

فاعتدل وجلس بجوارها قائلا لها اخلعي عني حذائي. ترددت زبيدة قليلًا، ثم قالت:

- لم يعودني أبي أن أخلع حذاءه، دائما ما يفعل سرور ذلك.

رد عليها بتهكم:

- انتهى عهد أبيك، فأنت الآن في عهد سليم، اقتربي واخلعي عني حذائي.

أبت زبيدة، وكظمت صدرها فأخذتها العبرة باكية، فهنض سليم خابطا كفًّا على كفٍّ قائلًا:

- أكره المرأة التي تبكي على كل شيء.

ثم أكمل بنبرة حادَّةٍ:

- إن لم تقتربي وتخلعي عني حذائي سأضربك.

وقفت زبيدة باكية ولم تتحرك من مكانها، فأمسكها من يديها بعنف وعينيه بها تحدي بأن رجولته ستنتصر، وما كان منها إلا أن رضخت لرغبته، فركعت على ركبتيها، وخلعت عنه الحذاء وهي تبكي. ثم نهضت ليدفعها على السرير، وهو يخلع سرواله يليه قميصه، وألقى بنفسه فوقها ليقع السرير بهما، فطرحها أرضا ليكمل عنفه، بينما هي تبكي وتتوسل له أن ينتظر، وهو لا يسمع سوى صوت شهوته فقط.

ما كاد ينتهي من تمزيق ملابسها، حتى أصبحت أمامه عارية بجسدها الممتلئ قليلًا، لتزيد من لهيب شهواته، فيلتهمها من أول شفتيها مرورًا بمفاتناها وصولا لهدفه الذي ما إن دس خنجره به حتى اندفعت الدماء منه كموج البحر، فصرخت زبيدة لتهز أرجاء البيت، بل وصل الصوت لشارع البحر كله. انقطع نبضها عن الوصل للحياه، أما ذلك البغل فابتعد عنها مرعوبا، ظنا منه أنها ماتت.

بخارج الغرفة كانت تقف فاطمة قائلة:

- أخبرنى يا سليم، هل نلت المراد؟

بينما سليم شارد بزبيدة العارية الغارقة في دمائها، بلا نبض ولا نفس، ولا يدرى هل هي فاقدة الوعى أم ماتت. ارتدى ملابسه ونهض ليفتح الباب لفاطمة، التي دخلت والابتسامة تعلو وجهها، لتجد زبيدة غارقة بدمائها وعارية، فأطلقت صيحات هزت أرجاء البيت، لينهض البواب على عجالة مفزوعًا ليقفز إلى جناح زبيدة، بينما كانت مسعودة تسحب ملاءة تغطي بها العارية. وكانت فاطمة تلكم سليم على صدره قائلة لقد قتلت ابنتي. والبواب يقف منفطر القلب على طفلته الغارقة بدمائها، ليدخل علي الحمامي مفزوعًا هو الآخر، ليطلب من مسعودة قلة المياه وبصلة، فتذهب مسرعة لتحضرهما. وبدأ على بتقطير بعض المياه على وجها، ومقربا حبة البصل من أنفها، لتبدأ عيناها ترمش قليلًا، ولكن نزيف الدم مستمر. أخذ علي الحمامي سليم جانبًا وقال له:

- لا بد لنا أن نجلب الحكيم الخواجه جون.

لم يعترض سليم بالطبع، ورد قائلًا:

- أخبر البواب أولًا.

تدخَّل البواب قائلًا:

- لا، كيف ناتي برجل غريب تنكشف عليه ابنتي؟

فاقنعه الحمامي لصعوبة الموقف.

استدار العجوز نحوي قائلًا:

- كعادة الناس في هذا الزمان، لا يجب أن تنكشف امراءة على حكيم، وإن حدث يقولون بأنه كشف عورتها.

قلت له:

- من هو الخواجة جون؟

- الخواجة جون حكيم بريطاني، قدم لمصر منذ ستة أعوام، ليس لديه أهل ولا ولد، ولكنه يمتلك من الحكمة في الطب والترياق ما يفوق أمهر حكماء جيلك، يأتي له كل من لديه علة أو داء ويشفيه بأعظم الترياق المصنع من الأعشاب والخلطات والتركيبات الغريبة، ويجري بعض الجراحات الصعبة، لا تنكشف عليه النساء أبدا، فقد أصدر المفتي المالكي فتواه بتحريم كشف عورة المرأة لأى رجل أجنبي عنها حتى الحكيم.

ألبست فاطمة ومسعودة الثياب لزبيدة، بينما كان الحمامي يدخل بيده الخواجة جون الذي استيقظ مفزوعًا ولا يدرى ما حدث، نظر لهم جميعًا ثم استدار للحمامي، طالبا منهم جميعًا الخروج، كان يحمل بيده حقيبة صغيرة بها بعض المشارط، وأداوات يستخدمها لعمليات جراحية بها خياطة. رفع الثوب عنها فوجد الدماء ما زالت تندفع، فوضع منشفة بفمها لتعض عليها وطلب منها الاسترخاء، ثم أخرج خيطا رفيعًا ليرتق به الجرح الذي أحدثه هذا البغل، وزبيدة تتألم وتعض على المنشفة، وتتصبب عرقًا من كل مكان، وما إن انتهى حتى فقدت زبيدة وعيها مرة أخرى، فأفاقها بمحلول أحمر يحمله بقارورة صغيره، ثم نادى على الجميع ليدخلوا، قائلا لهم ببعض الكلمات العربية التي اكتسبها من وجوده بمصر:

هي نائمة الآن، اتركوها ترتاح.

ثم نظر إلى سليم قائلًا:

- لا يجب أن تقربها لمدة أسبوعين، حتى يجف الجرح، وأوصيك بالمداعبة أولًا.

ثم أخرج من حقيبته علبة صغيرة أعطاها له قائلًا:

- تلك الخلطة ستسهل معك الأمر.

ثم هم بالرحيل والحمامي يتبعه لينوه عليه أن لا يخبر أحدًا من أهل البلد بتلك الليلة. بينما انتظرت فاطمة حتى الصباح بجوار زبيدة النائمة كالملائكة. حل الصباح يحمل غيومه وخيابته على قلبها وعقلها، ويكشف عن مرحلة أولى بحياتها، زجت نفسها بها بدعوى الجاه والسلطان. من هذا اليوم والألم يزيد بقلبها، وإن كان يقل بجسدها من آثار العنف الذي أحدثه هذا الفوضوي. بينما عقلها يعد الأيام حتى تمر بمرارتها، وفاطمة تدعو الله وتبتهل دومًا من أجل راحة ابنتها.

ذات مساء طرق الحمامي غرفتها، فتحت له وهي منهكة القلب والعقل، جلس بجوارها قائلًا:

- وجهك شاحب، وجسدك أصبح هزيلًا، قلبي يسمع أنين قلبك، فهلا هونت على نفسك يا حبيبتي؟

نظرت له وعيناها تملأهما الدموع قائلة:

- كيف أهون على نفسي وقلبي في أمري هذا؟

فاقترب منها أكثر وقبَّل رأسها قائلًا:

- أختي أنت أجمل الفتيات وأفضلهن، لك سحر وجاذبية تعجز معهما كل الرجال من السيطرة على أنفسهم، فكيف لسليم أن يسيطر على نفسه أمامك.

ثم أكمل وهي تنظر له بحيرة:

- استمعي لي جيدًا، عليك تقبل كل أمور الحياة، الجيد سيضيف لك، والسيء ستتعلمين منه.

ثم نهض ليكمل كلامه متجولًا:

- زبيدة، أنت بمقتبل العمر، ينتظرك مستقبل مشرق، ترى كم فتاة تحسدك على سليم صاحب الجاه والسلطان والمال، مُدي بصرك للمستقبل

وتنبأي، سليم من الممكن أن يحكم رشيد أو أحد الثغور الأخرى كدمياط أو الإسكندرية، أو حتى سيكون مكان مراد بك أو إبراهيم بك في يوم من الأيام، وتكوني أنت بمكانة زهرة أو حتى نفيسة، حبيبتي أطلقي العنان لطموح عقلك، دعي قلبك يبصر الحب بمنتصف الطريق أو حتى نهايته.

مرت الأيام بل الشهور، والأمور تتارجح بين الحزن والألم، وقد تمكن الهزال من زبيدة، وروحها يسودها الصمت. يذهب عقلها لتذكر هذا الحلم المريب، فترى نفسها غارقة بالنيل تارة، وتارة أخرى ينقذها أحدهم. تحاول أن لا يعكر صفوها شيئا، حتى تكتشف خيانة سليم لها، مع إحدى الفتيات بغرفة الصهريج بالمنزل، فتتكتم خيفة من وقوع الطلاق، لتعود لغرفتها باكية يتغلبها الألم كما كانت.

***

obeikandl.com

الفصل الخامس

جَولَـةٌ فِي بَارِيْـسَ

باريس: ١٨ فبراير سنة ١٧٩٨:

وجدت نفسي مع العجوز، نتجول بشوارع باريس الباردة، التي تملأها السعادة والمرح، ومظاهر الترف، نساؤهم ترتدين ملابس قصيرة كاشفة لسيقانهن، صدروهن عارية لا تغطي شعورهن سوى برنيطة، ولايحجبون وجوههن، أما الرجال فيرتدون سراويل ضيقة وقمصان واسعة، وتعلو رؤوسهم برنيطات تكاد تكون متشابهة بينهم.

دخلنا إحدى الأزقه، والعجوز صامت، قطعت صمته قائلة:

- شوارع باريس تملأها الحياة والبهجة على عكس ما كنت أظن.

فضحك العجوز قائلًا:

- ولما لا تملأها البهجة وهي على أعتاب السيطرة على الشرق، بعد أن تمكنت من السيطرة على الغرب، لولا تصدى انجلترا لهم، ناهيك عن ثورتهم ضد الملكية وإعدامهم للملك لويس السادس عشر، على مرأى ومسمع من كل فرنسي ثائر، ثم إعلان بلادهم جمهورية.

شردت قليلا متذكرة ثورات الربيع العربي بوطني الكبير، قلت له:

- الثورة أما أن تعيد المجد والعزة لابنائها الثائرين، أو الذل والهوان لهم ولغيرهم، ولا رجعة في غيرهما.

بمنعطف ذلك الزقاق وصلنا لإحدى الحانات، فأشار لى العجوز على رجل خمسيني، يضع برنيطته على طاولة مقابلة له، تجلس على ساقية أمرأة تبدو بالثلاثينيات من عمرها، ترتدي ثوبا فوق ركبتيها بكثير، ليظهر مفاتنها، وشعرها مسدول على نهديها، تقهقه بصوت عال، ويبدو عليه أنه ثمل من شرب النبيذ. كان يتكلم معها بالفرنسية، طالبًا منها الذهاب لمنزله لأنه مرهق، فخرجا سويا من الحانة، يحمل بيده زجاجة النبيذ ويده الأخرى على كتفها.

كنا خلفهما والعجوز يحكي لي من هذه:

- هذه يا صغيرتي جين جيرسين، هي راقصة عاهرة، وصديقة حميمة للجنرال جاك فرانسو مينو.

شهقت غير مصدقة:

- هل هذا هو الجنرال مينو نفسه الذي رأيته سابقًا مع زبيدة وهى راحلة مع قوات جيش الاحتلال الفرنسي من مصر؟

رد وهو يهم بالدخول خلفهما:

- بلى يا صغيرتي، هو.

استلقى مينو على أريكة، بحجرة صغيرة بمنزله، تتناثر عليها بعض الأوراق، فامسكت جين ببعض الأوراق قائلة:

- ما هذه الأوراق؟

كان يحتسى النبيذ ويشير لها أن تضع الأوراق مكانها. ألحت جين بالسؤال مرة أخرى، فنظر لها نظرة انهزام ثم قال لها والثمل يتمكن منه:

- هذه أوراق الترتيب لاحتلال مصر.

شهقت جين:

- كيف ذلك ومتى؟

مد يده نحوها قائلًا:

- جين، لا أحد يعلم بهذا الأمر إطلاقا، الأمر سري للغاية، وأن أخبرتك بالأمر كله فلا تتفوهي بكلمة واحدة لمخلوق.

ابتسمت قائلة:

- تعلم أنني مستقر اسرارك، فلا تقلق إطلاقًا.

فابتسم ومسح بيده على شعرها قائلًا:

- منذ أيام قليلة أرسل القنصل الفرنسي بمصر شارل مجالون تقريرًا مفاده أن الدولة العثمانية تتهاوى، وأن الأمور بمصر أصبحت أقرب للانهيار، تعلمين بحلم نابليون بالشرق، ثم أكمل لنا صحة التوقع وزير خارجيتنا المهندس تاليران، بتقرير أرسله بالأمس لنا، لذا أصدرت حكومة الإدارة أمرًا لجنرلات الجيش ببدء العمل على تجهيز حملة كبيره، يكون بها عدد لا بأس به من الجنود وأيضا العلماء والفنانين والرسامين، فقد تطول إقامتنا هناك.

ردت جين وهى ذاهلة:

- لعل ذهابك لمصر يحقق لك بعضًا من طموحك الذي سعيت له هنا ولم تناله.

فنظر لها نظرة حالمة وقال لها:

- تعلمين يا جين أنني من صغري منخرط بسلك الجندية، أحببت كثيرا الحياة العسكرية، حتى إنني عندما اخترت عضوًا بالمجلس التأسيسي، لم أبالي بذلك المنصب، حتى عهدت لي حكومة الإدارة باخماد فتنة إقليم فانديه، وانتصرت انتصارًا باهرًا أشادت به الحكومه، كل ما أحزنني أنني لم أهنا بمنصبي لرئاسة المجلس التأسيسي، أسبوعان فقط، وكان ذلك الزنديق

كليبر يسعى لاتهامي بالخيانة والتواطؤ مع المتمردين بحزب لويالتي، حتى سنحت الفرصة لنابليون أن يخمد الفتنة ويبزغ نجمه، وأكون أنا ذو الخبرة العسكرية تحت إمرته، تعلمين يا جين أنا أكبر من نابليون سنًّا وخبرة، هو صاحب السبعة وعشرين عامًا قضى منهم تسعة أعوام بالحياة العسكرية، أما أنا فقضيت عقدين ونصف بالحياة العسكرية، كانت كفيلة أن تجعلني مكانه، فقد جعلوا منه أسطورة بدون خبرة تذكر.

جين تستمع له بانتباه وكأنها معتادة على طول أحاديثه، ليكمل قائلًا:

- بالأمس أرسل لي تقريرا يخبرني به بأنني سأكون قائدًا لإحدى الفرق العسكرية، ولم يفكر حتى أن يضعني نائبه أو مساعده الشخصي، أتوقع يا جين أنه سيضع هذا الزنديق كليبر نائبًا له.

ثم انتهى ليرفع الزجاجة ويحتسي المزيد من النبيذ، ونام على ساقيها لتمسح بيدها على رأسه ليغوص في نوم عميق، فتضع رأسه على الأريكة وتنهض لتعدل ملابسها، رافعة المنديل المزكرش على كتفيها وتذهب.

صباح اليوم التالي، مينو مستلقي على الأريكة ليفتح عينيه، فيتحسس بجانبه ليجد الأوراق كما هي، فيصرخ:

- جين؟

واضعا يده على جبينه وصاح:

- آه لو علمت شيئا، سيذهب كل شيء هباءً، ولن أنال الذهاب إلى مصر.

ارتدى ملابسه على عجالة وخرج مسرعا، كنت أنا والعجوز خلفه حتى وصلنا لقصر عظيم البناء، قال لي العجوز:

- هذا يا صغيرتي، قصر التويليري، أنشاه الملك لويس الرابع عشر، انظري لحدائقه ومساحتها الشاسعة، والتماثيل التي تتخللها، وموقعه المتميز بين ساحة الكونكورد وقصر اللوفر.

دخلنا للقصر من الدخل، بينما كان مينو يدخل إلى قاعة كبيرة، فبادر العجوز بالقول:

- تلك القاعة يا صغيرتي قاعة العروض، أغلب نبلاء وأغنياء باريس وأعضاء المجلس التأسيسي يعقدون بها جلساتهم السرية.

قلت له:

- هذا يعني أن مينو قادم لاجتماع سري اليوم؟

أجابني ونحن نهم بالدخول للقاعة:

- نعم.

كانت القاعة شاسعة المساحة، فالنظر لسقفها يطول مثل النظر للسماء، يوجد بمنتصفها طاولة كبيرة الحجم، مصنوعة من الخشب الزان المطعم ببعض النقوش التي يبدو أنها إيطالية، يصطف على الجانبين كهول يرتدون بذلات عسكرية، وبرأس الطاولة يجلس شاب عشريني قصير القامة أبيض اللون. وقف العجوز يعدد لي الجالسين، بدأ برأس الطاولة قائلًا:

- هذا نابليون، وبيمين الطاولة يجلس مينو يجاوره الفران ويتبعه سان جوليان، وعلى الجهة الأخرى يجلس كليبر يجاوره ديسيه وباتيست.

افتتح نابليون الجلسة السرية بقوله:

- جمعتكم اليوم بسرية تامة، ولا أريد أن يعلم أحد بما دار بهذا المجلس، إن هدفنا الأكبر والأسمى هو إعلاء اسم جمهوريتنا، نريد أن تصبح فرنسا إمبرطورية لا حدود لها، سيقولون إن هذا هو هدف نابليون الشخصي، ولكن التاريخ سيثبت أن هذا هدف كل فرنسي أراد تمجيد اسم فرنسا عبر كل التوارايخ والأزمنة، ترون أن انجلترا قطعت علينا طريق رأس الرجاء الصالح، وتحكمت في كل القوافل والرحلات التجارية، التي تمر عبر هذا الطريق، أنا أفكر جديًّا في حفر قناة تربط النيل بالبحرين، لتتحكم الجمهورية الفرنسية

بالتجارة العالمية، وتقطع السبل على هؤلاء الغوغائيين، لا أخفي عليكم بأنني حلمت حلمًا شخصيًّا بحكم الشرق، ولكنني أريد أن يعلو اسم فرنسا عبر التاريخ، وسأظل أؤكدها عليكم، لذا أطلب منكم الاستعجال بتجهيز الحملة، لإننا على أقصى حد سنكون بيونيو القادم في مصر.

رد كليبر:

- ولم يونيو خاصة، من الممكن أن نذهب في خلال شهرين.

فأجابه مينو وهو يتهكم من غباء سؤاله:

- لأن يونيو يسبق شهور الفيضانات، لذا سيكون الأنسب دخول مصر في وقت منسوب النيل به غير مرتفع، ويسهل علينا التحرك بجنودنا وعتادنا ومؤننا.

نظر له كليبر نظرة سخرية، بينما رمقه مينو بنظرة تحدى وغرور. في تابع نابليون حديثه قائلًا:

- يجب على كل قائد فيكم أن يسعى جاهدا لإنجاح الحملة، ضعوا كل إمكانياتنا الحربية والعلمية والفنية بها، ما أريده منكم أن تجعلوا من فرنسا إمبراطورية عسكرية علمية ثقافية، لن تتكرر عبر كل العصور.

تركناهم أنا والعجوز يكملون مجلسهم، وعدنا أدراجنا ليحدثني عن حلم نابليون في الشرق، فبادرت بسؤاله:

- لم مصر خاصة؟

مصر يا صغيرتي هي مطمع كل غاز، هدف شخصي لما بها من خيرات وموارد وآثار وحضارات سابقة ولاحقة وحالية، فلم لا تكون مطمعًا.

***

الفصل السادس

الطَّرِيْقُ إِلَى مِصْـرَ

مصر: إبريل ١٧٩٨

على عكس صفاء الربيع وزهوته على أنفس الناس، جاء إبريل يحمل الألم وخيباته المتزايدة على روح زبيدة، تهدم آمالها أمام عينيها، والانهزام يسيطر عليها. مساء ليلة متعكرة، كانت زبيدة جالسة بمخدعها، تتذكر بحزن أيامها مع سليم، يعتصر قلبها ألمًا، ليدخل سليم ثملًا ورائحة النبيذ تفوح من فمه مقتربا منها، فأصابها الاشمئزاز، حاولت ابعاده عنها إلا أنه أصر على التقرب منها، فصاحت به:

- ابتعد عني يا سليم، لا أطيق رائحة هذا المنكر.

أمسكت بقلة الماء لضربه بها، ألا أنه أمسك بيدها وربطها بالسرير، ملقيًا إياها على بطنها، فصرخت بصوت يكاد يكون مكتومًا:

- سليم لا تفعل شيئا محرما معي.

لم يبالى لتوسلاتها، مخرجا سهمه من بنطاله وزرعه بمؤخرتها، فدوت صرختها بالأرجاء. انتهى منها ونهض ليلبس ملابسه، ثم جلس يكمل احتساء النبيذ من زجاجة بيده، بعد أن فك يديها، فمدت يديها له أن يعطيها

الزجاجة، نظر لها وابتسم، وناولها الزجاجة، وظلت تحتستي حتى أصابها الهذيان والضحكات العالية، ثم طلبت منه أن يكررها عليها مرة أخرى ويضاجعها من الخلف، فبادر بالموافقة وفعلها معها والسعادة تغمرها، والمتعة تتمكن منها.

صباح اليوم التالي استيقظت زبيدة على نوعين من الألم، ألم بمؤخرتها والثايى بدماغها، لتخرج من غرفتها وهى لا تدري ماذا أصابها. فتجد فاطمة مجتمعة بحسيبة، تتسامران ويبدو أنهما يتحدثان بأمرها. بادرت فاطمة بالقول:

- زبيدة، سنرسل في طلب الشيخة مبروكة لتراك، فقد مرت شهور ولم يرزقك الله بطفل تقر له عينك.

لم تدع زبيدة أمها تكمل حديثها، حتى صاحت:

- من قال إننى بحاجة لأطفال؟ لا أريد أطفالا، وأدعو الله أن لا يرزقني بأطفال.

سارعت فاطمة بإمساك يدها قائلة لها:

- اهدئي يا صغيرتي، لا شيء يستعصي على أمر الله، أنت ما زلتي بمقتبل العمر، ولم تمر إلا شهور على زواجك، سأخبرك أمرًا سيفرحك كثيرا، اكتشفت الشيخة مبروكة خلطة سحرية، سنتناولها أنا وأنت، وسيكون الرحم ممتلئًا خلال أقل من شهر، وما عليكى إلا أن تعطيني أساس الوصفة.

نظرت لها زبيدة بامتعاض، بينما فاطمة بادرت بسؤالها ما هو أساس الوصفة وسنوفره ولو كان بالهند. ردت زبيدة وهى تسعل بشدة، ثم هدأت لتكمل:

- لا بد لزبيدة أن تأتي لي ببعض من السائل المنوي لسليم، حتى تكمل مبروكة الوصفة لتتناولها صباحا ومساء، وبعدها يحدث المراد.

فردت فاطمة في ذهول:

- هل ستستطيعين يا زبيدة فعل ذلك؟

أجابتها زبيدة باشمئزاز:

- يبدو أنكم تنفخون في قربة مثقوبة، قلت لكم لا أريد الإنجاب من سليم، حتى وإن كنت أريد، لن افعل تلك الخزعبلات.

ردت حسيبة بقلق:

- ماذا أصابك يا صغيرتي، ألست سعيدة مع سليم؟

نظرت لها نظرة حزن وبؤس، ونهضت تاركة المنزل.

أصاب فاطمة الحيرة والقلق، فوجهت لها حسيبة الكلام:

- لا تقلقي يا فاطمة، كل الصبايا يصيبهم الملل والقلق ببداية الزواج، وخاصة أول عام، ولا تنسى أن تأخر الإنجاب أمر مجزع، ترين أنني على مر أعوام مضت لم أكف عن السعي والتضرع لله أن يرزقني بطفل، هلكت قدماي في الذهاب من شرق لغرب المحروسة وأقاليمها، طرقت باب كل العرافات والشيوخ، تمسحت وتوسلت لأولياء الله الصالحين بأضرحتهم، بكيت بمحراب العذراء ومسح البابا يوحنا برأسي وأضاء الشموع لأجلي، أخذت مبروكة بيدي للمقابر، ورأيت ما يشيب له رأس الرضيع، تناولت كل وصفات الحكماء وغيرهم، ولم أجد سبيلًا لعلتي، فلما لا تعتقدين بأنها تخشى مصيري، تخشى أن تواجه ما عانيته طوال الأعوام الماضية.

مرت أيام والحال لا يتغير على قلب زبيدة، الحزن يتمكن منها حتى فقدت صوابها ورشدها مع الآخرين، أصبحت أكثر عصبية وعنف على أمها، تعد الأيام بنهم، كأنها تسارع الزمن للرحيل، أما رشيد فكانت هادئة لا شيء يزيد على هدوئها سوى عقد قران محمود العسال على ابنة عبد الرحمن شرف المملوكي. وصلت الأخبار لها بزفاف محمود، فدار بعقلها حديث يذكرها بإصرار محمود على الزواج منها، فكيف لو كان يحبها بحق، أستطاع أن ينساها

ويتزوج بغيرها؟ ثم أطرقت التفكير بأنها هي من أبت الزواج منه وتزوجت بسليم، ثم تذكرت كلام أمها بأن محمود كان يطمع بمال أبيها لديون أبيه العسال، شردت لعلي أخوها الذي لا يختلف كثيرا عن محمود، فكلاهما يسعى للوصول لهدفه عن طريقها. لكن محمود لم ينل مراده منها، فبحث عن مراده في ابنة شرف، بينما علي يسعى خلف هدفه عن طريق سليم، لعله بتوددة له يصل لبلاط الحكم. ثم بكت وعقلها يذكرها بطفولتها، وقتما كانت البراءة تتمكن من روحها حينها كان علي ومحمود يلعبان معها، ثم يأخذانها للأمراء مستغلين جمالها وبراءتها، ليعطوها بعض الدراهم، ليقتسمها علي ومحمود بعد أن ينتزعوها منها.

ميناء تولون البحري: مايو ١٧٩٨

بدا الصباح يشق نوره على أطراف أوربا، ليزيد بريقه على باريس الهادئة، ليبلغ ذروته عند ميناء تولون البحري، لأقف أنا والعجوز نتابع بشغف وترقب ما يحدث. فوق أمواج البحر الهائجة، تلك الأمواج المتلاطمة في جدران ثلاثمئة سفينة وفرقاطتان حربيتان تقودهم سفينة أخرى للقيادة «أوريان». يحرسهم خمسة وخمسون سفينة، منهم اثنان بصاريين. كنت أشاهد هذا الأسطول البحري الضخم وأنا بذهول، بينما العجوز يتقدم بنا بين الجنود الذين يحملون الأمتعة والذخائر والمؤن ليعتلون بها على متن السفن، كان عدد الجنود لا يقدر عقلي على استيعابه، ولا نظرى على الإتيان بنهايته.

امتطينا أنا والعجوز إحدى الفرقاطات الحربية الضخمة، منقوش عليها اسمها بالفرنسية «موبرو» أما الفرقاطة المجاورة لها فكان اسمها «كاربر». يقف نابليون على ظهر «موبرو» ممسكا ببعض الأوراق، يصطف أمامه الجنرلات: مينو، كليبر، سان جوليان، باتيست، ديسيه، برتوليه، مونج، لان، مورا، دينو. ممسكين جميعا بنفس الأوراق، نظر بونابرت لهم عن يمينه وعن يساره، متحسبا أن يكون هناك جندي آخر يستمع لهم، ثم قال لهم:

- أعطيكم للمرة الرابعة منشور القرار الذي أصدرته حكومة الإدارة بإبريل الماضي، حتى تحفظوا عن ظهر قلب المواد الست التي تضمنها القرار، مقدمة القرار لا تعني هؤلاء الجنود المرابطين بالخارج، بقدر ما يعنيهم العزة ورفع مكانة الجمهورية، أحدثكم الآن وأناأارى نفسي بمخيلتي أزيح السلطان العثماني من عرشه، لأتربع مكانة تلك العمامة التي حفظها ذلك العرش ببرنيطتي.

عند ذلك ابتسم الجنرلات جميعهم، وازدادوا استماعا وانتباها لحديثه، بينما هو اتجه لسور السفينة يترقب بنظره الشاطئ وداوب الجنود على العمل للرحيل، ثم أكمل:

- سنبحر الآن بحملة قوامها ٣٦ ألف جندي، أراهم الآن مرابطين بكل شجاعة، أراهم بمخيلتي مرابطين في الآستانة.

ثم استدار لهم قائلًا:

- أنتم جنرلات، سبقتموني في الجندية، تملكون من الخبرة ما جعلني أنا وحكومة الإدارة نثق بكم تمام الثقة، وأضع كلا منكم على رأس فرقة من الوحوش الذين بالخارج، استمعوا لنابليون كصديق لكم وليس كقائد، أريدكم أن تعلموا أننا سننزل بلدا جهلاؤها أضعاف مضاعفة من علمائها ومثقفيها، فإن استطعنا امتلاك الجهلاء أولا، سيخضع لنا العلماء والشيوخ والمثقفين طواعية، علينا احترام دينهم، والسعى دائما لتمجيد عاداتهم وتقاليدهم، فقط تعاملوا بحكمة معهم بكل الأمور.

استدرت للعجوز قائلة:

- ماذا يحوي هذا القرار الذي يمسكونه جميعا؟

- يا صغيرتي، صدر هذا القرار من حكومة الإدارة في إبريل الماضي، وتضمن مقدمة يعقبها ستة مواد، مفاداها أن على الجيش الفرنسي تجهيز حملة

كبيرة للوصول إلى مصر وقطع الطريق على إنجلترا، التي سيطرت على طريق رأس الرجاء الصالح وزعزعت مصالح فرنسا التجارية، وأن عليهم إيجاد طريق جديد مخالف لذلك الطريق، حتى تتحكم فرنسا بالتجارة العالمية، وعلي الجنود الفرنسيين أن يقتصوا من المماليك الحقراء، بل إن وصل بهم الأمر لإعدام بعض المتورطين بإيذاء جنود الجمهورية فيما سبق.

- هل هذه هي الأسباب الحقيقة، أم إن ما ذكره نابليون عن حلم الإمبراطورية هو الحقيقة؟

رد العجوز وهو يضحك بتهكم على سؤالي:

- سؤالك يدل على قلة ذكائك يا صغيرتي، بالطبع سبب الحملة هو الحلم الأكبر لنابليون بتكوين إمبراطورية بالشرق.

كنت أتابع بشغف وترقب استعدادت الحملة للانطلاق، كان آخر ما تم تحميله على السفن هي آلات الطباعة بخلاف المؤن والذخائر والمدافع والبنادق والخيول. إحدى السفن كان يعتليها بعض النساء والرجال والأطفال، فقال لى العجوز:

- هؤلاء يا عزيزتي مائتي عالم من الرجال وزوجاتهم وأطفالهم، علماء بالآثار والزراعة والفلك والطب والمساحة، بعضهم باحثين ومستشرقين ورحَّالة، أما النسوة اللاتي تعتلين الفرقاطة الحربية «كاريير» فهن بعض زوجات الضباط والجنرلات.

مرت الأيام والحملة مبحرة بعرض البحر، وأنا مع العجوز أترقب وصولها لمصر، وطوال الرحلة كان بونابرت ممسكا بالقرآن الكريم، والمترجم جوني يلقنه القرآن، يؤاطئه في ذلك مينو، يواظب هو الآخر على حفظ القرأن وتعلم العربية، فأغلب الليالي يجالس نابليون ليشاركه التحدث بالعربية، بينما نابليون يداعبه قائلًا وفر التحدث بالعربية حتى تعلو راياتنا فوق منارة الثغر. بادر العجوز لتوضيح سبب حرص نابليون على حفظ القرآن قائلًا:

- يا صغيرتي، إن نابليون أراد المجد الشخصي لنفسه، قبل أن يريده لجمهوريته، فكيف لمن أراد المجد الشخصي لنفسه أن لا يحاول التقرب من دينهم بالخداع، بالحيلة بحفظ القرآن والتودد لدينهم بالوقار والتبجيل.

شردت قليلا بعد حديث العجوز متذكرة حاضري الذي تحكمه الإمبراطورية الأمريكية حكما معنويا لا ماديا، كيف استطاعوا فرض اللغة الإنجليزية كاللغة الأهم، وجعل لسان العرب ناطقا بمفرداتها في أغلب أحاديثهم، وأن هذا نابليون سعى لتعلم لغتنا وقبله سلاطين وحكام سعوا للغتنا سعيًا، كيف كنا وماذا أصبحنا.

جزيرة مالطة: ٩ يونيو سنة ١٧٩٨:

اقتادني العجوز صباحًا، حاملني على أجنحة الطيران لجزيرة مالطة، كانت أصوات النورس تطرق الآذان، والأكواخ الهادئة بمرمى نظرنا، ظننت للحظات أن الجميع نائم بسبب الهدوء. إلا أن بعض الصيحات والعويل ضجت بالمكان، فاتجهنا صوب الصوت عند غابة كثيفة النخيل. هالني ما رأيت فانتفضت بمكاني صارخة، لكن العجوز شد على كتفي ليهدئني، فقد رأيت جثثا مقطوعة الرأس ومعلقة على النخيل، وأخرى يخترقها الخازوق، وبعضهم مشقوق الصدر ومنزوع القلب. يتناثر بالغابة بعض الذين يرتدون بزات سوداء عليها ساري تعتلي رؤسهم خوذة محكمة الغلق وملتصقة بجيبنهم بعلامة الصليب. يعتلي أحدهم تبة صخرية ممسكًا بكوب من الدماء، لتعلو ضحكاته عنان السماء.

قطع العجوز رهبتي وخوفي وتطلعي لهم برهبة قائلًا:

- هؤلاء يا صغيرتي، هم فرسان القديس يوحنا، آخر فرسان الصليبين، جاءوا لتلك الجزيرة معلنين إعادة تكوين مجدهم وانتصارتهم، محاولين إرهاب سكان مالطة المساكين بقتل المتمردين منهم ونزع قلوبهم، بل ووضعهم على الخازوق، حتي يتمكنوا من إذاعة صيتهم مرة أخرى في العالم، مطلقين على أنفسهم لقب جديد وهو «فرسان مالطة».

نظرت له متعجبة وطلبت الرحيل من فوضى المنظر. رد قائلًا:

- انتظري فقد يروق لك ما سيحدث.

لحظات وكانت المدافع تطلق وابلًا من الأعيرة النارية صوب الغابة بل الجزيرة بأكملها، فخر البعض قتيلًا والبعض الآخر مصابًا، ومن بقى رفع يديه مستسلما للقوات التي نزلت على الجزيرة، بينما من حاول الفرار حاصرته البوارج الحربية بالبحر فعجز عن الفرار. نزل نابليون من فوق الفرقاطة يتبعه الجنرلات، يتفقدون هزيمة فرسان مالطة الساحقة، بينما اصطف السكان المساكين حوله بملابس نصف عارية، والرعب والخوف يتملكهم لأنهم لا يعرفون إلا الاحتلال منذ عهدوا لتلك الجزيرة مأوى. وقف بونابرت على نفس التبة العالية بالغابة والمترجم أسفل ليترجم خطابه لهم، وبدأ يخطب في جموع الخائفين قائلًا:

- جئت إليكم مخلصًا من هؤلاء الحمقى السفاحين الناهبين لكم، لتعلموا أن نابليون أكرم وأجود عليكم من أنفسكم، ولهذا أرجع لكم الحكم على من بقى من هؤلاء السفاحين، فقد سلبناهم أسلحتهم وسنعطيها لكم لتنتقموا.

بينما السكان كانت السعادة تغمرهم لتخلصهم من هؤلاء السفاحين هم الفرنسيون بالمغادرة، واعتلى نابليون والجنرلات الفرقاطة بينما السكان يلوحون لهم، وجرى أحدهم وهو يحمل طفلًا صغيرًا، فرفعه لنابليون ليقبله وأنزله بعناية أرضًا، وغادرت السفن الجزيرة. أشار لي العجوز على الطفل الصغير قائلًا:

- هذا الطفل سيصبح فيما بعد الشاعر العالمى الفيرن ده فنيه.

قلت له:

- محظوظ، لعله يتذكر دومًا تلك اللحظة بأن نابليون قبله وهو طفل.

رد العجوز ساخرًا:

- ولما لا تقولي أنه ندم على تلك القبلة، بل أضاف بأنه عندما قبله وأنزله بعناية أضاف عبدًا جديدًا له.

ثم أضاف والأسطول يبحر بعرض البحر:

- إن السعي وراء الإمبراطورية يقتضي الحكمة.

بعد ساعات من الإبحار أرسل نابليون في طلب نائب الأدميرال فرانسوا بول بروي، لواء بحري بالخمسين من عمره ذو خبرة بحرية كبيرة. قدم على عجل لبونابرت، فقال له:

- أريد منك مهمة أخطر من مهمتى أنا وهؤلاء الجنود والجنرلات.

فابتسم بروى قائلًا:

- هل هناك أمر أخطر مما سيحدث؟

أجابة نابليون بجدية:

- نعم. أريدك أن تضيعنا بالبحر لمدة ثلاثة أيام.

رد بروي متعجبًا:

- كيف ذلك؟ من المؤكد أننا إذا تحركنا الآن صوب الإسكندرية سنصل بعد يومين ليس أكثر.

رفع نابليون رأسه ناظرا له ومنتهيًا من تنظيف بندقيته الخاصة، ثم قال:

- صديقي بروي، أعلم أن بإمكاننا الوصول سريعًا وهذا أمر جيد، ولكن الغير جيد أن تعلم إنجلترا بوصولنا إلى مالطة، فيلحق بنا أسطولها المقيم بعرض البحر دائمًا، ويصل معنا عند الثغر.

رد بروي وهو في حيرة من أمره:

- كيف ستعلم إنجلترا بوصولنا إلى مالطة؟

أجابه بابتسامة عريضة:

- من هؤلاء الحمقى فرسان مالطة، فقد قدمت لهم المملكة الإنجليزية رشوة وأسلحة مقابل الولاء لهم، ومن الممكن أن يتسرب أحدهم عبر البحر ويبلغ الأسطول البحري المرابط دوما بعرض البحر، بروي أريد أن يصل أسطولنا بمأمن.

هز بروي رأسه بالموافقة على أمر صعب بالنسبة له أن يدور بالبحر ثلاثة أيام كاملة.

***

obeikandl.com

الفصل السابع

مِيْنُو فِي رَشِـيْدَ

رشيد، في ١٥ يوليو سنة ١٧٩٨:

كانت رشيد جاثمة فوق الشاطئ الغربي، بينما كان صيادوها وعربانها وفلاحوها يقيمون متاريس في الخط الفاصل بين النيل والبحر على أكبر همة منهم. أما الناس فكانوا يتجمهرون ويكثرون اللغط والحديث، والضجيج بشوارعها. بينما النسوة تغلق الأبواب والشبابيك بإحكام، أما الاسواق فتعلن الغلق، فنجد سوق الملايات والسويقة، يغلق بائعينه دكاكينهم، وأصحاب الحوانيت يحكمون غلقها.

وصلنا أنا والعجوز لمنزل الأمير محمد جوايجري، حيث يجتمع العامة والشيوخ والأعيان والتجار يناقشون أمر تلك الأخبار المتواردة من الثغر. كان يجلس تاجر يدعى سليمان سلحدار مذعورًا ومصابًا بالهلع، بينما الجميع ينتبه له وهو يتحدث مجاورًا للشيخ الخضري مفتي المدينة قائلًا:

استطعت الإفلات بمركبي الحاملة للحرير الذي جلبته من جنوة بإيطاليا من العمارة الفرنسية الكبيرة هائلة المراكب والسفن والفرقاطات، دعيت الله أن ينجيني من كثافة النيران المنطلقة من مدافعهم صوب أهل الثغر، حتى إنني أردت رؤية ما آلت إليه الأمور، فمكثت بمركبي ست ساعات بقرية العجمى

بجوار الصيادين، كانت الأخبار تتوارد إلينا بأن كبيرهم «نوباردي باشا» انتصر على أهل الثغر وقتل عددًا لابأس به من الناس، فاحتمى السيد محمد كريم بالقلعة ومعه بعض من جنود الألداشيات والقليونجية والروم والمغاربة، أما أهل الثغر لما أعياهم الأمر وعرفوا أنهم مغلبون لا محالة، طلبوا الأمان؛ وذلك لكثرة أعداد العدو وتقدم الآلات الحربية التي معهم، بل زاد هياجهم وثورتهم ضد أهل الثغر عندما قتل جنود الألداشيات جنرالًا عندهم يدعى سان جوليان، فكان بعضهم يبكونه كالنساء، أما كبيرهم نوباردي عندما أحكم قبضته على محمد كريم نادى بأن قاتل الفرنسيين ومعاون المماليك لا بد من عقابه، فأظهر الناس الطوع والاستسلام له، وأفلتُّ أنا بمركبي لأخبركم بسوء النبأ. رد الأمير جوربجى:

- أخطأ محمد كريم وتخيل نفسه قادرًا عليهم بعددهم وعتادهم، فقد نزلت عمارة إنجليزية من خمسة عشر مركبة يقودها كبيرهم نيلسون، طالبًا منه الأمان والزاد مقابل الدفاع عن الثغر من العمارة الفرنسية القادمة خلال أيام بعرض البحر، فأرسلوا له جنديًّا يتحدث على لسان كبيرهم نيلسون قائلًا: نحن نقف بمراكبنا في البحر محافظين على الثغر، لا نحتاج منكم إلا الإمداد بالماء والزاد بثمنه. فأجابهم بجواب غليظ القول: هذه بلاد السلطان، وليس للفرنسيين ولا لغيرهم عليها سبيل، فاذهبوا عنا. فعادوا أدراجهم ويأسوا من أمرهم وقضى الله أمرا كان مفعولًا.

عندئذ هاج الجالسون وماجوا بالقول، وحملوا كريم سوء الأمر، وأثناء لغطهم وصل رسول يحمل مكتوبًا من الأمراء المماليك للأمير محمد جوربجى. جاء المكتوب بعد استغاثتهم للمماليك، فأمسكه جوربجى ليقرأ ما به على الحضور، قائلًا:

مضمونه أن إبراهيم بك ومرد بك اجتمعا وتناقشا في هذا الأمر، ومعهما لفيف من الأمراء والعلماء والقضاة، وهم الآن في طريقهم لملاحقة هؤلاء

الغوغائيين ومحاربتهم وسحقهم، على رأس جيش من العسكر الخيالة والجنود والألداشيات والقليونجية والروم والمغاربة، سيصلون عبر البحر في الغلايين، ويأمرنا باستكمال المتاريس على الجسر الأسود عند برج مغيزل ورشيد، حتى تمنعوا مراكب الفرنسيين من العبور للنيل، بل شدد على عمل سلسلة عظيمة التخن والمتانة من الحديد، حتى لا يقدروا على الوصول للمحروسة عبر النيل.

ثم أكمل والجميع في صمت:

إن الوالى يطلب منكم أن تفتحوا الأسواق، وتعلقوا القناديل على المنازل والدكاكين، لا خوف ولا فزع تجعلوه يمتلك قلوبكم، فالوالي والأمراء سيقدرون على دفعهم عنا فهذه بلاد السلطان، ولا سلطان لأهل الغرب علينا. بدأ الامان يتسرب إلى قلوب الجالسين وطال مجلسهم، بل كثر اللغط والحديث والثرثرة. تركتهم أنا والعجوز وتوجهنا صوب منزل البواب. وهناك كانت زبيدة جالسة على دكة بقرب النافذة، تنظر من خلف الخرط الميموني لترى المارة من الناس، يمشون على استعجال ويسوقون بهائمهم وحميرهم أمامهم، والأطفال يجرون أمام أمهاتهم ليدخلوا المنازل مختبئين، كانت تراهم من خلف النافذة مخروطين ومقسمين تماما كخرط النافذة، وبينما الشرود والحزن يتمكن منها، دخلت فاطمة باكية، ثم جلست بجانبها وهى تمسح دموعها قائلة لها:

- خلقك ربي وصورك بأبهى صور الجمال، لتظفري بكل جمال صبايا رشيد والثغر، بل المحروسة كلها، ولكنه كتب قدرك بمكتوب القضاء التعيس والبائس.

ردت زبيدة وبقلبها تنهيدة ألم:

- لعل يا أمى ما ينتظرني من قضاء الله أفضل، لقد استجاب الله لدعائي، فذهب عني سليم وأطلق من فمه طلقة حريتي، وخلصت من الحياة التعيسة معه.

- يا ابنتي سيعود سليم ويردك لعصمته، وسيصلح الله حالكما، فقط كُفي عن ادعاء التعاسة، لعل أمر تأخر الإنجاب حال بين سعادتكما سويا، عندما يعود سليم من القتال مع جيش مراد بك، سيردك وسنذهب للعرافة مبروكة، ونصنع لك ذلك الحجاب وسيقضي الله أمر إنجابكما بمشئيته.

استدارات لها زبيدة قائلة بغضب:

- أمي، أرجوك لا تذكريني به مرة أخرى، فقد ذهب عني ولن أعود له مجددًا، كنت أتمنى أن يطلقني، وها هو قد فعلها.

قطع حديثهم الحمامي عند دخوله، يتبعه البواب، ثم ألقيا السلام وجلسا. كان علي يحمل بيده منشورًا ورقيًّا، بادرت فاطمة بالسؤال وهى تمسح دموعها:

- أخبروني ما الجديد، وما آلت إليه الأمور؟

فأجابها على:

- الأمور غير جيدة، فقد وصل الفرنسيين إلى الرحمانية، وطائفة منهم وصلت إلى دمنهور، أما الباقين فيبحرون بعرض البحر متجهين صوب رشيد.

فانتبهت زبيدة للحديث متسائلة:

- ماذا عن جيش المماليك، هل لاقاهم؟

أجابها أبوها بعزة:

- يا عزيزتي، فرسان المماليك لا طاقة لهم لملاقاة هذا الطوفان من الإفرنجة الفرنسيين.

رد علي بتهكم:

- إن الفرنسيين أعدداهم هائلة، وتورادت الأخبار عن تفوق الآلات الحربية معهم، وكثرة البارود والبنادق والمدافع، بالإضافة إلى ذكاء قائدهم الذي يقال له «نوباردي باشا»، فهم قادمون بعد حرب واسعة ببلاد أوربا انتصروا فيها انتصارات كبيرة.

سألته زبيدة:

- علي، ما هذا المنشور الذي بيديك؟

- هـذا المنشـور وصلني مـن رجـل مغـربي وصـل بـرًّا إلى دمنهـور مـرورًا برشيد، بـه خطـاب عـلى لسـان كبـير الفرنسـيين نوبـاردي باشـا يطمئـن بـه النـاس، ويؤكـد عـلى احـترام السـلطان العثـماني، وملاحقـة المماليـك المجرمـين بحـق الجمهوريـة الفرنسـية، وبأنـة يحـترم الديـن الإسـلامي ويمجـد عـادات المصريـين.

نظرت لـه زبيـدة ولسـان حالهـا يقـول: لمـاذا تهتمـى بأمـر كهـذا، تمنـي مـن الله أن يفتـك الفرنسـيين بجيـش مـراد وخاصـة قـوات الانكشـارية ويكـون فيهـم سـليم.

فجـر اليـوم التـالي، انشـق القمـر فى عـين زبيـدة، وتسـاقطت مـن السـماء شـهب أضـاءت سـماء رشـيد، وتناثـرت عـلى منازلهـا، ليـأتي أحدهـم ممسـكًا بيـد زبيـدة لتعـبر بـين النيـل والبحـر، عـبر ذلـك المتـراس بينمـا هـي تطـير طـيرًا معـه. ثـم تسـتيقظ مـن حلمهـا وهـى مضطربـة، لتسـتمع لأصـوات صريـخ وعويـل وبلبلـة كبـيرة بالخـارج، فنهضـت مـن مخدعهـا عـلى عجـل وهـي تضـع شـالًا عـلى كتفيهـا، لتجـد خـارج غرفتهـا أمهـا، فتسـألها:

- ما الأمر يا أمي؟

تجيبها فاطمة والذعر يسيطر عليها:

- لا أعلم يا ابنتي، ثم تردد يا منجي من المهالك، نجنا مما نخاف.

واتجهتـا صـوب النافـذة ورفعتاهـا لأعـلى، فوجدتـا النـاس يهرولـون، البعـض منهـم يخبـط كفًّـا عـلى كـف، والبعـض يجـري عـلى بيتـه ليطفـئ القناديـل والفوانيـس، حتـى سـاد الظـلام في الشـوارع. دخـل الحمامـي متعجـلًا، فاسـتدارت فاطمـة متسـائلة:

- ماذا يحدث يا علي؟

بينما كان البواب مستيقظًا من نومه مفزوعًا هو الآخر متسائلًا:

- ما الأمر يا علي؟

التقط علي أنفاسه بصعوبة ثم جاوبهم:

- لقد وصل الفرنسيين إلى برج مغيزل، وهدموا المتاريس التي أقمناها على الجسر الأسود، ليعبروا النيل وهم الآن ينزلون قواتهم على البر للدخول للمدينة اليوم.

شهقت فاطمة مرددة:

- يا لطيف اللطف، ألطف بنا، أين المفر من هؤلاء الإفرنجة، سنهلك منهم.

فبادر البواب بالقول لها:

- لا تقلقي يا فاطمة، معنا الله، دعينا نتدبر أمرنا ونطفئ القناديل والفوانيس للمنزل، وننتظر حتى الصباح أمر الله.

بينما زبيدة شاردة في مجهول يهمس لها أن القادم سيغير مصيرها، فبدأت بعينيها لمعة لم تعهدها من قبل. ظل علي يتابع الأخبار ويخبرهم بالجديد، يتابع معهم مجريات الأمور، ليخبرهم أن عثمان خجا ركب حصانا واتجه على رأس قوة من جنود الالداشيات صوب المحروسة ليحارب بجانب مراد بك، وزهرة ماكثة بالمنزل تغلق على نفسها بالمتاريس.

تحدث زبيدة نفسها عن حال زهرة قائلة:

- كل مُلك سيزول، فمن يرى زهرة وفرعنتها على كل نساء رشيد، وكأنها ملكت الشرق بقبضتها لا يراها الآن وهي مرهوبة ومفزوعة.

انجلى الليل بعتمته، وبزغ الصباح بنوره على رشيد، بمنازلها المضطربة، بينما أهلها ومشايخها وضعافها يتلون آيات الذكر الحكيم، ويدعون الله بكل الدعوات المنجية من المهالك. في السابعة صباحًا، ظهر في الأفق الجنرال جاك فرانسيس مينو، خلفه ما يقرب من ألف وخمسمائة جندي وضابط، يتقدمهم

ضباط العزف الموسيقي ضاربين على آلالاتهم الموسيقية بالسلام الوطني الفرنسي، ومينو رافع هامته يتفقد بعينه المنازل والشوارع، بينما يطلق جنود المدفعية بعض الطلقات كتحية بالقرب من قلعة رشيد.

بدأ الناس بالاطمئنان. ونزلوا من منازلهم واحدًا تلو الآخر، وكان أولهم علي الحمامي يتبعه شيوخ وكبار أعيان رشيد من التجار والصيادين وغيرهم، تجمهروا مصطفين ليستمعوا لما يقوله الجنرال القادم عليهم. بينما كانت زبيدة تتابع من نافذة غرفتها أجواء دخول هؤلاء لمدينتها، بمرمى نظرها وجدت مينو شامخًا بهيئته المهندمة وجسدة الممتلئ، ووجهه القاتم على صهوة حصانه، يرتدي بزته العسكرية ويرفع يده على جبينه ليحيي الجماهير الغفيرة التي أتت للسلام عليه. كانت تنظر له بعين لامعة، وعقلها يخبرها بأن هذا هو المنقذ، وقلبها يخبرها: «ها هو من شهقت له من النظرة الأولى». ثم أرسلت قبلة من شفتيها عبر الخرط الميمونى صوب فارس الجواد الذي اختطفها بنظره، لتعلن عن بداية معركة عشقية بين قلبها وعقلها. بينما أنا استدرت للعجوز قائلة:

- ها هي صاحبة المال والجمال والحسب تقع بغرام كهل أوربا.

فابتسم العجوز لى بسخرية، بينما كان مينو ينتبه للجماهير الغفيرة المحتشدة لرؤيته، لم ينتبه لتلك القبلة التي أُرسلت في الهواء عنوة، فلو أبصرها ما كان له أن ينتبه لهؤلاء إطلاقًا، لولا ذلك الخرط الذي حال بين رؤيتها. نزل مينو من على حصانه، ليسلم على الجميع: المشايخ والعلماء والتجار والصيادين حتى الأوباش والشحاذين، فطلبوا له دكة عريضة ليعتليها ويتربع عليها كأنه تربع على عرش مصر، بينما اصطف الناس جالسين على الحصائر، والجنود حوله من كل صوب، والمترجم بجانبه يحاول ترجمة ما يصعب على مينو التحدث به بالعربية.

بدأ الحديث قائلًا:

- السلام عليكم أيها المواطنون الأشراف، أعرفكم بنفسي، أنا الجنرال جاك فرانسيس مينو، قائد الفرقة الخامسة الملقبة بالفرقة التي لا تقهر، ما

كنت أتخيل أن كرمكم وحسن معاملتكم لي ولجنودي سيصل لهذا الحد، هؤلاء الجنود الذين حولكم لا أخفى عليكم كم واجهنا حتى وصلنا إلى هنا، بعضهم وصل بحرا عبر برج مغيزل، والبعض الآخر جاء عبر البر من الثغر إلى هنا سيرا على الأقدام منذ حوالى أربعة أيام، ذقنا المشقة والتعب وقلة الماء، بل إنني فقدت أعز جنود فرقتي موتًا بالعطش أو الإنهاك، وها كان الحظ حليفي إذ وصلت إلى هنا ولم أجد هؤلاء المماليك الحثالة، على رأسهم حاكم مدينتكم عثمان خجا ورئيس عسكره.

ثم نهض من مجلسه وأكمل:

- أقسم بشرفي أن أعمل على حسن معاملتكم، واحترام مشايخكم، ولتعلموا أننى اتبع حذو قائدنا الأعظم نابليون بونابرت، وأحترم الإسلام، بل أكاد أجزم بأنني مسلم بقلبي وعقلي، وأحفظ القرأن الكريم وأحاول إتقان العربية من أجلكم.

ما إن أنهى حديثه حتى ضج الجالسون بعبارت الثناء والفرحة والطمأنينة مما ذكره، أما علي الحمامي فكان يتودد له ويتقرب من مجلسه ليعرض عليها المساعدة، بتنظيم شئون الإدارة بالمدينة.

مساء ذلك اليوم اجتمعت حسيبة وفاطمة وزبيدة بحجرة فاطمة، يشعلان بمجلسهم قنديلًا واحًدا، ويخلو المجلس من الأصوات العالية والضحكات، فقط الهدوء هو المسيطر، بينما يبدو الذعر على وجه حسيبة في ارتعاش يديها وهى ممسكة بكوب الشاي، بينما زبيدة شاردة وحالمة، تسافر بروحها بذلك الإحساس الذي تملكها اليوم محدثا ضجة بقلبها وفوضى بمشاعرها. سألت حسيبة فاطمة عن أحوال زهرة. فأجابتها:

- صدمت اليوم عندما أخبرني غزال بأنها هربت فجرًا، بعدما أمنت نفسها وأغلقت أبوابها تسرب الخوف لقلبها عند قرب قدوم الفرنسيين لرشيد، فحزمت أمتعتها وذهبها وجورايها البيض والسود ورحلت.

فردت فاطمة بفزع:

- إلى أين ستذهب؟ ومن ستقصد ولم يبق لها من الأهل أحد؟

- لعلها ستفتدى بنفسها وذهبها وتمكث بإحدى الأرجاء.

رددت فاطمة:

- يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء.

بادرت زبيدة بالسؤال:

- ماذا عن السيدة نفيسة؟

أجابتها حسيبة:

- لقد علمت بأنها ماكثة بقصر الروضة، جمعت جواريها وعبيدها وأموالها وذهبها، وحصنت نفسها، بينما ذهب مراد لملاقاة الفرنسيين جهة شبراخيت فهُزم وتقهقر ورجع جهة الجيزة، تاركًا جنوده من القتلى تبتلعهم الأرض، فلاحاجة له بهم بعدما قتلوا.

بينما فاطمة تتمتم بعبارات اللطف والدعاء..

***

obeikandl.com

الفصل الثامن

احْتِلالُ المَحْرُوْسَةِ

٢١ يونيو سنة ١٧٩٨:

تحرك مينو من رشيد صوب القاهره، بعد أن جاءه إخطار من القيادة العامة للجيش لملاقاة القائد الأعلى على رأس فرقة مكونة من خمسمائة جندي وفارس، بينما بقي الجنرال دوجا بالمدينة ومعه بعض الجنود ينظمون الأمور الإدارية والعسكرية بها. كان الجو خانقًا، ودرجة الحرارة تُعلن عن تجاوزها الأربعين مئوية. بينما الكتائب العسكرية تواجهه العطش بالصبر. أما مينو فكان يشد من أذرهم ويحثهم على الثبات والتحمل، حيث نفذت المواد الغذائية والمياه من الجنود، ولم يبق لهم سوى نهر النيل بجانبهم هو المورد المائي الوحيد المنقذ لهم من العطش، لكن مينو شدد على عدم الاقتراب من حواف النيل تحسبًا لغدر المماليك أو حتى العربان الهجامة الذين جعلوا من الفرنسيين شاغلًا لهم، فكانوا يلحون بالأفق بخيولهم وجمالهم محاولين اختراق صفوف الجنود للقيام بعمليات النهب والسرقة.

بمنتصف الطريق عند الرحمانية التقى فريق مينو ومعه الجنرال بون، بفريق الجنرال كليبر وأكملا المسيرة سويًّا صوب إنبابة، وهي قرية صغيرة واقعة على ضفاف النيل تحتشد بالفلاحين الكادحين والمماليك الثائرين على ملكهم

بمصر المرابطين بخيولهم، فرسانهم يبرزون سيفوهم في وجه الفرنسيين معلنين عن تحدي لحرب ضارية ومدمرة. وعلى الجانب الشرقى للنيل ينتظر إبراهيم بك ومعه حفنة من الجنود، بمراكبهم وغليونًا حربيًّا واحدًا كبيرًا يضعون بها أسلحتهم وذخائرهم، بينما مراد يحتمي بحشود الفلاحين وفرسان المماليك بواجهة القرية، متحصنًا بمدفعية ضخمة، لكن ضخامة مدفعيته لم تشفع له بالنصر، إذ هاجمته مدفعية الفرنسيين فوقع مئات القتلى من جنوده وأيضا الفلاحين، فما كان منه عندما رأى جنوده صرعى يحتضنهم طمي النيل، إلا أن أخذ جواده ومعه بعض جنوده من الألداشات وبعض الناجين من الفلاحين المعاونين له وتقهقر صوب الجنوب.

ساعات مرت دخل خلالها كليبر إنبابة وسيطر عليها، ووقف لجنوده رافعًا سيفه مردِّدًا:

- النصر للجمهورية، النصر للجمهورية، انطلقوا وافتكوا بالأعداء.

فهاج الجنود وتوجهوا مسرعين صوب جنود المماليك المرابطين على المدفعية الضخمة، الذين لم يحالفهم الحظ للفرار مع مراد، فقاموا بطعنهم بالسكاكين والخناجر واستولوا على المدافع، بينما من فر منهم ألقى بنفسه في النيل من هول الموقف. وعندما وجد إبراهيم بك المرابط عند الجهة الشرقية للنيل فظاعة الموقف فرَّ هو الآخر صوب الشرق.

أما مينو فوقف يرفع من روح جنوده المعنوية، مهنئًا لكل الكتائب المرابطة على ضفاف النيل فقال لهم:

- اليوم أبليتم بلاءً حسنًا، ورفعتم من قدر الجمهورية الفرنسية، نهنئ أنفسنا بالانتصارات المتتالية في حملتنا على الشرق.

بينما الجميع مبتسم وسعيد بهذا الانتصار، صاح الجنرال بارتيه قائلًا:

- لم تثبت العسكرية الأوربية قط مثلما أثبتت اليوم تفوقها على الشجاعة الشرقية غير المنظمة.

أما كليبر فاقشعر وجهه ناظرًا لمينو بسخط ومتجاهلًا حديثه مع الجنود والجنرلات، موجهًا حديثه للجنرال ديزيه مخبرًا إياه بأن عليه الذهاب خلف قوات مراد الفارة صوب الصعيد. في كانت السعادة تغمر نابليون وتضفي عليه بريقًا لتجعله يتابع الأمور بصمت وابتسامة لا تفارق وجهه. عبرت القوات الفرنسية النيل للجهة الأخرى، ليصلوا لقلب المحروسة ليلًا، بالقرب من الأهرامات اجتمعت القوات جميعها يتقدمها نابليون على صهوة حصانه، الجميع يغالبه التعب والإرهاق والشعور بالعطش والجوع، ينتظرون اللحظة الحاسمة لدخول المدينة والاستيلاء على عرش مصر.

فأما مينو فكان يخال لنفسه أن يكون هو المتربع على كرسي الحكم، بينما كليبر شامخ بعظمته بانتصارته السابقة والحالية بل والقادمة أيضًا. وقف نابليون والعزة تهيمن عليه، فنظر لجنوده قائلًا:

- إن أربعين قرنًا من الزمان في انتظاركم.

فدبت الروح بصفوفهم وعلا شأنهم كعلو الطير بالسماء، فلا شئ يحجم أحلامهم وآمالهم العريضة كأحلام قائدهم. دخل المدينة في عصر هذا اليوم بدون أي مقاومة من أهلها، وجميعهم على قلب رجل واحد لإعلاء اسم جمهوريتهم.

كنت أتجول مع العجوز وقلبي يخفق من فرط استسلام المصريين وتسليمهم زمام الأمور من محتل لمحتل، رحل المماليك فارين وهاربين، ودخل الفرنسيون بجنودهم وعتادهم وآلاتهم ومدافعهم. الناس متجمهرون: الشيوخ والعلماء وعامة الشعب والأعيان والأطفال والنساء والشباب، ترى العمامة بجانب الطربوش والبيشة السوداء تكتسح الميدان على وجوه النساء، الحفاة منهم أكثر عددًا من لابسي القباقيب المغربية ضخمة الحجم، يصطفون طوابير، ومن شرفات المنازل والنوافذ يطلون، على قباقب الدكاكين يترصصون، كل ذلك ليروا من هذا المحتل الجديد ويرحبون به بالزغاريد والطبل.

وقف نابليون بينهم يحوطه جنوده، وكليبر على يساره ومينو بالخلف وبقية الجنرلات يصطفون جميعًا صامتين يستمعون له وهو يقول:

- كم أنا سعيد بسلوككم، لقد أحسنتم صنيعًا بعدم الانحياز ضدي، فما جئت إلا للقضاء على سلطة المماليك، وحماية التجارة ومصادر البلد الطبيعية، ليهدأ كل من كان بنفسه خوف، وليعود كل من خرج عن منزله، ولتقام الصلاة كما هي العادة، وكما أريد أن تستمر دومًا، لا تخشوا على نسائكم وبيوتكم وأملاككم، وخاصة على دينكم الذي أحبه.

دخل الأمان لقلوب الناس، ورحبوا بوجودهم وعادوا لمنازلهم. بينما العلماء والشيوخ اجتمعوا سويًّا لتدبير موعد للقاء نوباردي باشا ومعرفة ما ستؤول إليه الأمور. كنت أمر مع العجوز بشوارع المحروسة وأنا أخبره بحيرتي من أمر هؤلاء المصريين، كيف يفكرون ولماذا يندفعون هكذا دومًا. وصلنا لقصر محمد بك الألفي حيث يقيم نابليون وحوله بعض الجنرلات، مفتتحًا حديثه لهم اليوم:

- أحدثكم من داخل مركز القيادة العامة للجيش الفرنسي، أرجو منكم أن تذكروا دائمًا أن الجمهورية الفرنسية، هي الأولى ويأتي بعدها مصالحنا الشخصية، تناسوا المصالح والخلافات القائمة بينكم، تذكروا انتصارت، احذروا من اخفاقاتكم بأوربا، دعوا الشرق هو أمل جمهوريتنا.

ثم ختم حديثه معهم، طالبًا كليبر على انفراد، خرج الجميع، أما مينو استدار وهو يهم بالخروج، ليرمق كليبر بنظرة غل.

خرجت مع العجوز خلف مينو الغاضب، فاستدار العجوز لي قائلًا:

- هكذا يا صغيرتي، لن تهدأ أطماع العسكريين في السلطة عبر كل العصور، فما يطمح به مينو لا يقل عن طموح نابليون.

سألته بتعجب:

- ماذا عن كليبر؟

أجابنى باستنكار:

- يا صغيرتي، كليبر يعرف بأنه الرجل الثاني بعد بونابرت، فقد عيَّنه نائبًا له، ويستشيرة بأمور سرية للجيش، مغمضًا عينه عن بقية الجنرلات وخاصة مينو.

أثناء حديثتنا وجدنا مينو متقدمًا بحفنة من الجنود نحو منزل عظيم التشييد والمعمار، مشيد على الطراز العثماني يتداخله قليلًا من الطراز المغربي، فدخل مهاجمًا هذا المنزل بجنوده بعد أن كسر الجنود بوابة الحديقة. تجلس بالمنزل سيدة أربعينة فائقة الجمال، ممشوقة القوام، تمتلك عينين زرقاوتين، خصرها متناسق، ترتدي ثوبًا حريريًّا يميل إلى الزرقة وعليه رداء مزركش، يحوطها عبيد بيض وسود. هجم جنود مينو برواق المنزل ليصيح العبيد والخدم صارخين، أما هي فلم يصبها الفزع، ثم التقت عيناها بعيني مينو، فرمقها بنظره بوجهه الأحمر القاتم. ثم تحدث إليها بشيء من الحدة والصرامة قائلًا:

- السيدة زينب الأسود لدينا أمر بتفتيش منزلك لسببين: أولهما عن زوجك إبراهيم بك، والثانى عن الأجانب الذين تحتجزينهم بمنزلك.

أجابته بكل هدوء وثبات:

- أما عن الأمر الأول، فطليقي إبراهيم بك فر هاربًا، وأما الثاني، فهؤلاء الأجانب لا أحتجزهم، أنا فقط أخبئهم عندي حفاظًا عليهم من بطش المماليك، وهم بالداخل عليك أن تسألهم.

وبينما هي تتحدث، إذ أخرج الجنود الأجانب اليونانيين والألمان والإنجليز الذين كانوا يقيمون بمصر ولديهم حوانيت بوكالة ذو الفقار. وقد أخبرني العجوز بأن مراد وإبراهيم جمعوهم، عند عِلمهم بقدوم الحملة؛ ليقيموا مذبحة كبرى في حقهم ليرهبوا الفرنسيين، لولا زينب التي خبأتهم بمنزلها خوفًا من بطش زوجها.

تحدث أحد الألمان الرهائن لمينو قائلًا:

- الشكر للرب ثم لهذه السيدة العظيمة التي خبأتنا بمنزلها، بعدما احتجزنا زوجها بمزرعته، محاولًا قتلنا، فساعدتنا هي على الهرب والاحتماء بمنزلها.

أنهي الرهينة حديثه بينما كان مينو يتقدم صوب زينب التي رمقته بنظرة إعجاب، قائلًا:

- أعتذر عن اقتحام جنودي لمنزلك بهذه الطريقة، تقبّلي احترامي.

ردت عليه بدلال:

- لا، لن أقبل اعتذارك إلا لو قبلت دعوتي على العشاء في اليوم الذي تحدده.

ابتسم بوجهه المكشوف عن البيشة السوداء، الذي يبرز منه جمالها، ثم قال لها:

- بكل سرور سأحضر، وأتناول من يديك الطعام المصري الشهي.

لفت العجوز نظري إليه قائلًا:

- زينب الأسود يا صغيرتي، زوجة إبراهيم بك الحاكم المشترك مع مراد بك، قبل قدوم الحملة لمصر حلمت حلمًا فسره العارفين بقدوم احتلال لمصر، بينما اتهمها إبراهيم بالجنون، وعندما علمت بوصول الحملة عند الثغر، ثارت بزوجها قائلة سأحكم مصر وحدي، وستهلك أنت كما تنبأت لي العرافة. فما كان من زوجها الا أن طلقها.

- إذا هي تدعو مينو على العشاء كي...

قطع كلامى قائلًا:

نعم، ما يدور بخاطرك صحيح

***

الفصل التاسع

إعْدَامُ السَّيدِ مُحَمَّدٍ كُرَيِّم

الأزبكية، قصر الألفي: أغسطس سنة ١٧٩٨:

نابليون يجلس على دكة تقابلها منضدة، عليها بعض الأوراق بجانبها دواة الحبر، يُشعل قنديلًا صغيرًا يشع بريقًا على وجهه الشاحب، بينما عقله شارد يفكر فيما يكتب لمن سرقت قلبه وعقله وكيانه، تلك الغائبة التي ملكت زمام سعادته وراحته، كان يتحدث لنفسه قائلًا:

– كيف يا جوزفين تفعلين هذا بقلبي وتتركينه وحيدًا، لكنني أعذرك حبيبتي، كيف لك أن تتحملي تلك الاجواء والصراعات وصوت المدافع والعطش والجوع والقلق وقلة النبيد، لكن مدفعي يا عزيزتي يرغب بهدفك، أكاد أنفجر بدونك.

ثم أمسك الريشة ووضعها بدواة الحبر بادئًا بكتابة رسالة لها يقول فيها:

– يا جوزفين الفريدة، بعيدًا عنك يبدو العالم كله صحراء خاوية، أنا فيها وحيد، أنت استوليت على أكثر من روحي كلها، عندما يتملكني السأم من هذه المخلوقات المملة المسماة بالبشر، عندها أكاد ألعن الحياة، عندما أضع يدي على قلبي حيث تستقر صورتك. حبك بالنسبة لي هو غاية السعادة، الحياة من أجل جوزفين هذا هو كل تاريخي.

ثم يضع الرسالة بالمظروف، ويستدعي الملازم فوريه، ليأتي مسرعًا، فيعطيه المظروف وبعض الرسائل الأخرى المرسلة لحكومة الإدارة، مشددًا أن تصل الرسائل بسرعة، منبها عليه أن يعتني جيدًا برسالة جوزفين، لاحظ فورييه تأثر بونابرت، فبادر بسؤاله باستحياء:

- لماذا لم تأت معك سيدي؟ فزوجتي مارغريت أصرت على القدوم وأتت معي.

نهض نابليون بقامته وملامحه الوسيمة، مقتربًا من فورييه طويل القامة قائلًا له:

- جوزفين حبيبتي، أنهكت روحي وكياني، استنفدت طاقتي في التفكير بها،أاحببتها بعنف وأغار عليها أكثر من غيرتي على حلمي. دعنا منها وأخبرني أين تقيم مارغريت؟

نظر له فورييه نظرة بؤس قائلًا:

- تقيم بحجرة صغيرة بحي بولاق، ولا تروق لها الأجواء المعيشية.

- أرسلها لي اليوم تتناول العشاء معي.

- بكل سرور سيدي، سأشعر بالأمان بوجدها بجواركم في سفري بالبريد.

يدخل مينو بينما فورييه يستعد للخروج. جلس مينو بمقابلته قائلًا:

- وصل منذ قليل السيد محمد كريم حاكم الإسكندرية بناء على أمر اعتقال صدر من الجنرال كليبر، أحتجزه الآن بمزرعة إبراهيم، فقد قدم بصحبة الجنرال دجو.

- يجب أن يكون مصيره الموت، لقد أصدرت أمرًا بعد موقعة الأهرام بالإفراج عنه، إلا أنه أصر على المقاومة، لذلك سيلقى مصيره بالإعدام خلال أيام، فقد تسبب جنوده في مقتل فقيدنا الجنرال سان جوليان.

رد مينو بهدوئه المعهود:

- أعلم ذلك، حزني على جوليان لا يقل عن حزنكم، فقد أصدرت أمرًا بإطلاق اسم فقيدنا على قلعتي الثغر ورشيد، لكنني أرى أن أمر إعدامه سيجعل الأهالي يثورون ثورة عارمة ضدنا، فهو بمثابة بطل قومي لديهم، وخاصة أنه ليس مملوكيًا، بل وصل لحكم الثغر بحبهم وتقديره لهم.

فكر بونابرت قليلًا ثم قال له:

- أرى بكلامك كثير من الصحة، لذلك سأحاول أن أطلب من المحقق أن يعرض عليه افتداء نفسه بالمال، وبذلك نكسب بعض الود من أهالي المحروسة والثغر، ولكن إن رفض دفع الفدية سأرفع يدي عنه وأرجع الأمر لكليبر، إنك تعلم الصداقة التي كانت تجمع جوليان وكليبر، فهو يريد القصاص لصديقه.

عند ذلك عبس مينو وقال وهو يهم بالرحيل:

- شكرًا سيدى على كياستك وحسن إدراتك.

نظرت للعجوز بتعجب من أمر مينو، فهو فرنسي النشأة والكيان، فكيف يرتضي أن لا يتم إعدام قاتل صديقه، شعر العجوز بما يدور بخاطري، فبادر بالقول:

- يا صغيرتي إن مينو، يهدف إلى أبعد مما تظنين، هو حزين على جوليان بالطبع، لكنه يريد الهدوء والأمان لإقليم حكمه، مينو يا صغيرتي وُلي حكم الإقليم الشمالي المترامي الأطراف الممتد من رشيد إلى الإسكندرية مرورًا بدمنهور والبرلس، ذلك الإقليم المرابط عنده الأسطول الإنجليزى دائمًا، هو يريد أن يكسب حب الناس وولاءهم له، فإن قتل كريم هذا سيجلب عليه كثيرًا من المتاعب والمشاغبات، الإفراج عن كريم سيكون في صالح إدراته، وسيتمكن حينها من جذب مشاعر الناس.

سألته عن قدر كُريم، فسرد لى قدر المبكي قائلًا:

- سيرسل نابليون، برسالة للمحقق وهو قاضٍ فرنسس عينه كليبر، للنظر في أمر كريم، ستتضمن الرسالة أمر عفو من القائد العام، إذا افتدى كريم نفسه بدفع ثلاثمئة كيسٍ، والكيس يحتوي على ما يقابل خمسمئة قرش من الفضة الخالصة، أو ما يقابلها بالريالات الذهبية، فيعرض المحقق على كُريم هذا القرار، فيعترض قائلًا: «إذا كان مقدرًا عليّ أن أموت، فلن يعصمني من الموت أن أدفع فدية، وإن كان مقدرًا عليّ أن أعيش فعلام أدفعها؟». بعد ذلك يا عزيزتي سيجتمع كليبر ببونابرت ويصدرا حكمًا في السادس من سبتمبر بإعدام كُريم بميدان القلعة رميًّا بالرصاص، وسيلاقي ربه صباح ذلك اليوم وهو ثابت بعزيمته.

أحزنني العجوز بكلمات كُريم، ثم قلت له:

- وماذا عن مصير مينو بعد ذلك في الحكم؟

- أخبرتك دوما أن لا تكونى عجولة، ستعرفين كل شيء في حينه.

***

obeikandl.com

الفصل العاشر

العَـشَـاءُ

كنت أنا والعجوز على موعدي عشاء: الأول بمنزل زينب الأسود، والثاني بمنزل الألفي مع نابليون. تطرق لذهني كيف أن العسكر يهربون دائمًا من رائحة الموت وصوت المدافع، لرائحة النساء وشهواتهم، فالحرب ورائحة الموت أدعى أن تفقد الشخص طعم ولذة الحياة وبريق الشهوات، ولكن هذان الموعدان أثبتا لي عكس ما يظن الجميع. كنا أولا بمنزل زينب الأسود، بينما جواريها وطواشيها قد أحضروا عشاء دسمًا من الزفر، طيور الدجاج والحمام، كانت الطاولة تضج بأشهى الأطعمة، أما زينب فكانت قد تزينت وتعطرت وكحلت عيناها، التي أعلنت منهم عن تحدي أنثى لجذب رجل، قدم مينو بزيه العسكري المعهود ووجهه المحمر، وابتسامته المشرقة، لتكون زينب بواجهة استقبالة وقد أخرجت جواريها، بينما هو يتجرد من جنوده. انحنى صوبها، ثم أمسك بيدها مقبلًا إياها. أجلسته ليتناول الطعام، وهما يتبادلان النظرات، بينما هو يأكل بهدوء ورشد لم تعهد به زينب رجلًا من قبل. فبادرت زينب بالقول:

- انتظرت جلوسك معي على هذه الطاولة كثيرًا، ولكنك أهملت دعوتي طويلًا.

فأجابها مينو بثبات:

- كيف لي أن أهمل دعوة كليوباترا مصر؟

- ليتني أحظى بمكانة كليوباترا وحظها بحب مينو لها، أقصد أنطونيو.

قالتها وهي تقهقه، بينما مينو مبتسمًا، لينهض من مجلسه صوبها ممسكا بيدها ليقبلها، ثم اقترب منها أكثر محاولًا تقبيل شفتيها، إلا أنها تراجعت بدلال قائلة:

- ليس الآن، لا بد أن نتزوج.

تراجع مينو قليلًا ثم قال لها باستغراب:

- نتزوج؟

أسرعت قائلة:

- نعم، نتزوج، فأنا الآن مطلقة، ولدي من الأملاك والجواري والأموال الكثير، ومن الحسن والدلال ما يكفي غريزتك الرجولية، ما عليك إلا أن تعلن إسلامك حتى ولو ظاهريا وتتزوجني.

فرد مينو بحدة عليها:

- لماذا ترغبين برجل ليس من دينك، بل محتل لبلدك، سلبك ملكك وملك زوجك؟

فأجابته وعيناها تحمل نظرة انكسار مصطنعة:

- لأنني أرى أنك إن تزوجتي، ستحمينى من غدر رفقائك بي أو طمعهم بجسدي أو مالي، فمنذ أن رأيتك وقلبي يأمرني باللجوء لك.

فأمسك مينو يديها مقبلًا إياها، قائلًا لها:

- دعيني أفكر بالأمر.

ثم هم بها ليلتهم شفتيها، بينما هي استسلمت له راغبة فيه.

اتجهت أنا والعجوز للموعد الثاني ببيت الألفي، كان نابليون يجلس على طاولة العشاء بمقابلة مارغريت، فاتنة باريس صاحبة العينين الخضراوين، فينما هي تتناول حساء البازلاء، هم بونابرت ليضع بعض النبيذ من الدورق لنفسه بكوب وهو يوجه الحديث لها:

- تدرين يا مارغريت، أن فورييه محظوظ بك كزوجة وحبيبة، لم تتركيه ليأتي وحده، ولم تكوني على علم إلى أين هو ذاهب، ومع ذلك أصررتي على الذهاب معه.

نظرت له مارغريت مبتسمة متسائلة:

- وماذا عن حظك مع السيدة جوزفين، أسمع عن قصة حب كبيرة تضمكما، ولما لم تأت معك؟

ارتشف نابليون بعضًا من النبيذ، ثم نظر لها ببؤس قائلًا:

- فضلت حياة الترف عني، فما لها بهذه الحرب الضارية والأجواء الخانقة ورائحة الموت، دعينا منها، أخبريني ماذا عنك، هل تلاقين الراحة والأمان هنا؟

فأجابته بحزن:

- أشعر بالضجر والسأم والملل من وضعي، وأسكن بحجرة رديئة، ولكنني أحاول التأقلم.

نهض من مجلسه واتجه صوبها ليصب لها بعض النبيذ من الدورق، فأراق النبيذ على ملابسها بدون قصد، فهرع نابليون لإزاحته عن ثوبها ولكنه فشل، فبادر قائلًا:

- عذرا مارغريت لم أكن أقصد عزيزتي، تعالي لمخدعي وأبدلي ثيابك هناك.

نهضت على عجل وهى تشلح فستانها فوق ركبتيها، ثم اتجهت معه صوب

مخدعه، بينما هو يتقدمها، وما إن وصلا حتى أطال النظر لساقيها، لتكشف عيناه عن شهوة عارمة، سبقتها لوعة الشوق والحنين لطعم النساء، فيتقدم نحوها ويرفع الثوب عن آخره، فبرز أمامه نهديها كالجبال الشامخة، فما كان منه إلا أن التهمهما حتى تأججت شهوته، لترقد بعد دقائق معلنه عن انتصارها على إمبرطور فرنسا العظيم، في أحضان زوجة أصغر ضابط بجيشه.

بالصباح استيقظ نابليون وهو يحمل انتصارين، أحدهما امتلاك مصر، بينما الآخر إشباع رغبته. فبادر بالابتسامة بوجه شريكة فراشه مارغريت، لينهض على عجل ليطلب من أحد جنوده توفير منزل عظيم الفرش بناحية الأزبكية. ليبدأ صباحًا مشرقًا على نفسه، ولكنه أبى أن يشرق على أسطوله، ليدخل مينو متلهفًا للقائه وإخباره بسوء الأنباء، قائلًا:

- وصلت أنباء من الثغر تفيد بأن الأسطول الإنجليزي بقيادة نيلسون، هاجم أسطولنا شر هجمة، ودمره ما عدا الفرقاطتان الحربيتان، ولقى عشرات الجنود حتفهم، على رأسهم نائب الأدميرال بروي.

خبط نابليون على رأسه قائلًا:

- قضي على أحلامي في الشرق.

ليسود الصمت بينهما. بينما مينو غادر متجها لرشيد، ليتولى حكمها، أما نابليون فشرد عقله وتشتت، بل لعن النساء والشهوات والحب، فقد تقطعت كل سبل الوصول للجمهورية ولم يبقى إلا فرقاطتين فقط.

***

الفصل الحادي عشر

اللقاءُ المُرْتَقَبُ

رشيد، أواخر سبتمبر سنة ١٧٩٨:

أتى الليل يحمل قمرًا مكتملًا بسماء رشيد، والبحر بأمواجه التي تتصادم على بقايا حطام تلك المعركة التي دارت رحاها بالجسر الأسود، بينما كان البواب يقف على الشاطئ وهو قلق، والسماء تمطر بعض القطرات التي تتساقط على الأشجار المحيطة بالمنازل، الواقعة على ضفاف البحر والنيل معًا، بينما مؤذن الفجر يعلو بصوته من فوق المئذنة «الصلاة خير من النوم، «الصلاة خير من النوم». وكان البواب يلتفت حوله يمينًا ويسارًا في قلق ورهبة، وفجأة ظهرت في الأفق مركبة صغيرة للصيد، نزل منها شخص، بينما كان الضباب يسيطر على المكان، فلم يظهر من هو، فاقترب البواب منه وعانقه ثم ركبا المركبة وانطلقا.

بادرت خلفهما أنا والعجوز لنعرف أين يذهب البواب، وجدناه سليم أغا نعمة الله، ملثم الوجه يتحدث للبواب قائلًا:

– سنصل يا عمى لقرية المقربية من نواحي قوص بقنا عبر النيل، وهناك سنقدر على مواجهة هؤلاء الحثالة من الفرنسيين، حيث جمع مراد بك كل الأسلحة والذخائر بالمخازن هناك، وسنقدر على مواجهتهم.

بادر البواب بسؤاله:

- أين إبراهيم بك وقواته؟

- لقد فضل الذهاب ناحية الشام مع بعض قواته، أما مراد ففضل المقاومة بجانبنا بالصعيد. وما أخبار زبيدة هل ما زالت غاضبة مني؟

- سليم بني، ما دمت على قيد الحياة ستبقى زبيدة زوجة لك، ولن أجعلك أو أجعلها تتركان بعضكما.

فابتسم سليم وأكملا الطريق بالمركبة الصغيرة.

بمنزل البواب كانت زبيدة تجلس بمخدعها صباحًا، مصابة بالضجر وتتساقط الدموع من عينيها، لتدخل فاطمة عليها وهى قلقة قائلة:

- ابنتي، من يومين ولم يدخل الزاد فمك.

ثم أكملت وهى تمسح على رأسها:

- إن أباك يا صغيرتي يعرف مصلحتك، لذلك يصر على رجوعك لسليم.

نظرت لها بوجه شاحب ومرهق:

- أمي لن أعود له إطلاقًا، وأن حاولتم الضغط علي سأقتل نفسي.

واصلت فاطمة المسح على رأسها، وهى تردد الأدعية والابتهالات، ثم قالت لها:

- لقد ذهب أباكى فجرا، أخبرنى أنه ذاهب برحلة تجارية، وسيعود بعد شهر، لا تقلقي وارخي أعصابك خلال هذا الشهر، حتى يعود ونتحدث معه بالعقل.

دخل علي الحمامي ملقيًا السلام، فردت فاطمة عليه، بينما زبيدة رمقته بنظرة بؤس، فاقترب منها، ثم شد على كتفها قائلًا:

- انسي أمر سليم، فقد ذهب مع المماليك ولن يعود، الفرنسيون سيحكمون، ومصر أصبحت من نصيبهم، بموقعة الأهرام سحق الفرنسيون المماليك، وهرب مراد وإبراهيم واتباعهم صوب الصعيد، ولا أمل بعودتهم.

فابتسمت زبيدة ابتسامة اطمئنان، ثم سألته:

- ما أخبار الفرنسيين برشيد؟

- بالأمس كنت مجتمعا ببيت الشيخ الجارم مع شيوخ وأعيان وتجار رشيد، فدخل علينا الجنرال مينو يتبعه جنوده، جلس يحدثنا على لسان مترجمه، مخبرنا أنه يريد أن ينشئ ديوانًا يضم شيوخ وأعيان رشيد، كالديوان الذي أنشأة بونابرت بالأزبكية، وعين به الشيخ عبد الله الشرقاوي، ثم أفرد القول والحديث عن مشاريعه العظيمة بفرنسا وحضارتهم وثورتهم على الملك، وأكمل لنا عن نيته لإقامة مشروع عظيم بمصر، يطور به الزراعة والصناعه، ووضع نظام للمواريث، وإنشاء ديوان يدرج به المواليد والوفيات، بل يفكر أن ينشئ مقابر بعيدة عن العمران حتى يحافظ على الصحة العامة للناس، ويحافظ على المسافة الفاصلة بين الموت والحياة.

كان علي يحكي، بينما زبيدة شاردة، تخال نفسها زوجة لذلك الرجل صاحب العقلية الذكية، متذكرة نبوءة مبروكة بأنها ستحكم الشرق والغرب، وأنها ستتحقق مع هذا الفارس. ناداها الحمامي:

- زبيدة، هل أنت معي؟

- نعم، معك أكمل حديثك.

- لا، لن أكمل سأذهب لأنام.

ثم أكمل وهو ينهض:

- صحيح، لي صديقة فرنسية قدمت مع الحملة تدعى أماليا، هي فتاة فائقة الجمال، قدمت معهم لتجرى بعض البحوث الآثارية، التقيتها بالأمس،

واكتشفت أنها تتحدث العربية جيدًا، فدعوتها لتناول العشاء عندنا، فهلا أكرمتي ضيفتي.

ابتسمت وأمالت رأسها له بالموافقة.

فى المساء كانت زبيدة تستعد لإكمال وليمة العشاء مع مسعودة بانتظار ضيفة أخيها، بينما عقلها كان يستعد لوليمة أخرى، وليمة الجنرال مينو، كيف ستؤكله طعم جمالها وتجذبه لها، ثم شرد عقلها لهذا الحلم الذي راودها، بأن سليم يلقيها بالماء ليلتقطها أحدهم، فيخبرها عقلها بأن هذا المنقذ هو مينو، بل أن هذا المنقذ هو من أخبرته به مبروكة.

دخلت أماليا بصحبة علي الحمامي، فتاة طويلة فارعة العود بيضاء البشرة، باسمة دومًا، ألقت تحية المساء على زبيدة ثم جلست بالقرب من الحمامي على طاولة العشاء، بينما فاطمة تجلس صامتة معهم، كان الحديث شبابي يتقاسمه الثلاثة: زبيدة، وعلي، وأماليا. يتقسامون الضحكات والمزاح. ثم انتهوا من تناول العشاء، ذاهبين لحجرة الأغانى لتدندن أماليا ببعض الأغانى الرومانية القديمة، وعيناها تكشف عن إعجاب بعلي، أما علي فبدا عليه المكر والدهاء بنظراته لها، فبادرت زبيدة بسؤالها:

- هل أنت متزوجة؟

أجابتها بحكمة:

- لا، لم أتزوج إطلاقًا، في بلادنا المرأة تسعى دوما لتحقيق ذاتها أولا، ثم يأتي بعد ذلك البحث عمن يقاسمها الحياة.

ضحك علي قائلًا:

- أرى أنك ما حكيتي لي بعد عن عظيم إنجازاتك، إنك بحاجة لمن يقاسمك الحياة.

احمرت وجنتيها ثم ابتسمت لتنهض فجأة:

- سأغادر الأن لأنام مبكرًا، فلدى موعد في الصباح مع الجنرال مينو، فقد اكتشف أحد الجنود حجرًا كبيرًا تعثر به بقلعة جوليان، به نقوش يبدو أنها للحضارة المصرية القديمة، وقد دعاني الجنرال مينو لدراسته.

كان قلب زبيدة يدق من ذكر اسم مينو. وانتهزت الفرصة وقالت لها:

- هل يمكنني المجيء معك؟

نظر لها علي مندهشًا. فبادرت أماليها بأجابتها:

- بالطبع، يمكنك المجيء.

صباح اليوم التالي كانت زبيدة تستعد كما لو كان موعد زفافها، فأتمت زينتها عن كاملها، وارتدت ثوبًا أبيضًا بدت فيه كعروس، واضعة على وجها بيشة لا يبرز منها إلا عيناها، متجهة مع أماليا صوب منزل حاكم رشيد السابق، الذي سكنه مينو. كان مينو يجتمع ببعض العلماء الفرنسيين، يحوطه جنوده من كل جانب، وما إن رفع عينيه صوبها حتى أعلنت انتصار أنوثتها على كهولته، أصابة الارتباك والتوتر، ولم ينتبه لمن حوله، فقط عيناه كانت تتفحص جسدها الممتلئ قليلًا، ويبرز أنوثها ذلك الثوب الملوكي الذي ترتديه، أما هي فقد سعدت بتلك اللحظة التي سرقت فيها نظره تجاهها، اقترب مينو منها ثم قال لصديقته أماليا:

- هل تعرفيني على صديقتك الجديدة ؟

ابتسمت أماليا قائلة:

- عذرًا سيدى، أعرفك على الجميلة فاتنة رشيد زبيدة الميزوني، أخت السيد علي الحمامي.

ابتسم مينو قائلًا:

- دعيها تتحدث معي، فأنا أتقنت العربية.

ثم نظر لها قائلًا:

- منذ قدومي لمصر، لم أر عينين يتسعان نورا وبهجة كعيناك.

وبينما هو يغازلها رفعت بيشتها عن وجهها، فبدت كالقمر المستدير بليلة تمامه، فاتسعت عيناه وتباعدت شفتاه في لهفة لم يعهد مثلها بحياته. مرت لحظات وهو يحدق بوجهها، وعيناه تأكل ملامحها، بينما هي تضيف بدهائها وذكائها إغراء على ملامحها، فتثيره أكثر فأكثر. جلسا سويًّا على إحدى الدكك، بينما المكان يعج بالعلماء والعسكر، أما أماليا فتناست أمرها، أو بالأحرى تلك الأجواء اعتيادية بالنسبة لها، فالاختلاط بين النساء والرجال أمر طبيعي بالغرب، أما بالشرق فهو جرم ديني، بل قد يصل الأمر لاعتباره من حدود الدين. بينما مينو يتحدث لزبيدة كالأصدقاء الذين يعرفون بعضهم منذ زمن، كانت طلاقته في التحدث بالعربية مبهرة لها، أما بالنسبة له ذكائها وقدراتها العقليه، ومعرفتها بالأمور الإدارية والتنظيمية كانت مفاجأة، إذ كان الأمر بالنسبة له أن النساء العربيات غير معنيات بتثقيف أنفسهن.

إنتهي اليوم وهمت زبيدة بالرحيل، بينما قلبها ماكث عند مينو، أما هو فلم يرد لها أن تذهب؛ فقد ذاب قلبه وعقله فيها. تركته زبيدة ليفكر بها، ولسان حاله يخبره أن كيف لمن عاش بباريس كل هذه العقود، لم يجد امرأة فرنسية أو حتى أوربية تأسرة مثلها، جمالها الشرقي وعقلها وفكرها، كل شيء بها مثير بالنسبة له، ثم شرد بخياله وتخيلها زوجة له وأن ينجب منها طفلا، حلم دوما بإنجابه ليحمل اسمه، لكن ما عكر صفوه زينب الأسود التي عرضت عليه الزواج، فراح عقله يفكر من سيتزوج، امرأة صاحبة المال والجواري والعز، أم الفتاة التي تصغره بعقود، الشهية الذكية التي خطفت قلبه؟ لكن قلبه حسم الأمر وأخبره أن الاختيار الحتمي لمن ملكت قلبه.

عادت زبيدة لمنزلها فوجدت أمها مريضة طريحة الفراش، درجة حرارتها

مرتفعة، ففضلت أن لا توقظها وتخلد للنوم، بينما قلبها يخبرها أن ذلك الحلم كاد يتحقق، فخلدت للنوم حالمة بكل أمل وأمنية أن تفوز بمينو. ومر يومان والمرض يزداد على فاطمة، والحمى تشتد عليها، أما علي فيحاول معها أن يجلب لها الحكيم، لكنها ترفض أن تنكشف على رجل أجنبي وزوجها مهاجر. حل مساء هذا اليوم المشئوم، إذا دخلت زبيدة لتطمئن عليها فوجدتها لا تتحرك، بل قاطعة النفس، حاولت معها مرارًا وتكرارًا، فلم تستجب، صرخت زبيدة مستغيثة بعلي ليأتي مسرعًا، محاولًا هو الآخر، لكن السر الإلهى كان قد سبق مجيئه.

بعد دفن فاطمة جلست زبيدة، متناسية كل أحلامها وطموحها. بل كل دقات قلبها التي شعرت بها من أجل مينو، لم يشغل بالها إلا الحزن والبؤس والألم، طال بكاؤها ليلًا، جزع معها الصبر، واعتكفت الجلوس بالمنزل وعدم رؤية أحد سوى حسيبة التي اعتادت الاطمئنان عليها دومًا. بينما مينو كان يحترق في الليالى شوقًا لرؤياها، فلم يلقاها أو يعلم عنها شيئًا منذ وفاة أمها.

أما على فلم يكمل حزنه على أمه، حتى عقد قِرانه على أماليا، لم تكترث زبيدة عند عِلمها بزواجه، فهى تعلم طبائع أخيها، بل أن حزنها على أمها أنساها كل الأمور ولم تعد تهتم لأحد.

***

الفصل الثاني عشر

اسْتِشْهَادُ البَوَّابِ

ديسمبر سنة ١٧٩٨:

مر شهران على وفاة فاطمة، وزبيدة بدأت حالتها في التحسن. دخلت حسيبة عليها وهى جالسة تحتسي فنجالًا من القهوة، وتقاسمت معها احتساء القهوة، وتحدثا سويًّا بأحوال رشيد وأهلها، وعن أحوال الحملة بمصر، فبادرت زبيدة بسؤالها:

- ما أخبار المحروسة عند زيارتك الأخيرة؟

- الأمور مشتعلة كما هي، والفرنسيون سيطروا على كل شيء، وأفردوا منازل المماليك لعلمائهم وجنودهم.

سألتها زبيدة وكأنها تسترجع ما مضى قبل موت أمها:

- وما أخبار نفيسة؟

- يحتمي بمنزلها أغلب نساء المماليك، حتى السيدة زهرة هربت إليها، وعلمت أنها تراود عن نفسها جنرال الفرنسيين بونابرت، فقد دعته للعشاء بمنزلها، فأهداها ساعة من الألماس، وطلبت منه الزواج.

اندهشت زبيدة قائلة:

- حقًّا؟

ثم شرد عقلها بمينو وحلمها به، لولا موت أمها وغياب أبيها منذ شهرين. فأكملت حسيبة حديثها:

- حقًّا، بل إنه تنكر لها، وأخذ هديته مرة أخرى بفدية كبيرة، ليعيدها لعشيقته.

تملكت زبيدة العبرة لتذكرها أمها وغياب أبيها، فاستعبرت ولم تنتبه حسيبة، فنهضت فجأة قائلة:

- خالتي، سأستأذن منك لأرتاح قليلًا، لقد أصابني الدوار، البيت بيتك.

- أريحي جسدك الهزيل، سأذهب لأعد العشاء لعمك غزال.

بينما كانت حسيبة تنزل الدرج، كان الحمامي وأماليا يصحبهما مينو يصعدان الدرج، لتفاجأ زبيدة بهم، فيشهق قلبها. يتقدم مينو نحوها ممسكًا يديها بعفوية، ليقبلها بشغف وحنين. نظر لها بحنين قائلًا:

- طال انتظار عيناى لرؤيتك.

فلمعت عيناها لمعة عشق وحيرة قائلة له:

- لقد أهكلني الحزن، بل زهدت الحياة، لم أعد أرى نفسى كما كنت.

ثم اتجهت لتجلس، بينما الحمامي وأماليا يتركانهما وحدهما، بادر علي قائلًا وهو ينزل الدرج:

- لقد عانى الجنرال من أجل رؤيتك، حتى غلبه الحنين وطلب المجيئ معنا لرؤيتك.

تبسمت زبيدة له. قطع مينو العتمة التي بداخلها قائلًا:

- هل تتزوجينني؟

نظرت له بدهشة ممزوجة بالفرح، فأمسك يديها مكملًا:

- تنقلت بين أعوام حياتي الخمسين وحيدًا، وبين شوارع ومدن أوربا، لم أجد من تأسر روحي مثلما فعلتِ، أريدك زوجة لي، أريد أن أنجب منك طفلًا يحمل اسمي، فهلا وافقت؟

ترددت قليلا، ثم قالت:

- لكنني لا أستطيع الزواج بمن على غير ديني.

نظر لها مبتسمًا قائلًا:

- ومن قال إنني من غير دينك؟ من أجلك أعلن إسلامي، بل إنني أكاد أؤكد لك أنني مسلم بالفطرة، أحب الإسلام وأحترمه، وأحفظ القرآن الكريم كما أخبرتك سلفًا.

ابتسمت وبرزت من ملامحها السعادة، ثم أكمل:

- بالأمس، اجتمعت بالشيخ الجارم والشيخ الخضري، وأخبرتهما بعزمي الزواج من امرأة مسلمة مصرية، لكن الجارم اعترض، أما الخضري فأخبرني بأنني إذا أشهرت إسلامي سأقدر على الزواج من مسلمة.

تبسمت له قائلة:

- أنا أهديك نفسي وحياتي، فكما ترغب بي زوجة أنا أيضًا أرغب بك، أنا أحبك.

فاقترب منها وضمها لصدره قائلًا:

- أنا أيضًا أحبك.

جاء المساء حاملًا الأمل على وجهها، تناست قليلًا الألم والحزن ومرارة الفراق، خلدت لنوم عميق يطمئن به قلبها وعقلها، فقد أعلن قلبها الانتصار وأحب أخيرًا، وعقلها راوده الأمان، بل كادت تقترب من تحقيق نبؤءة مبروكة.

كان جسدها هادئ، وعيناها مغمضتان، وروحها بعالم آخر، فجاة نهض طيفها وطاف بأرجاء الحجرة، ثم دخل من المشربية أحدهم يرتدي عمامة كبيرة وجلبابًاأابيض، يشع وجه نورًا وعيناه تطلقان شعاعًا أبيض اللون لينير المكان، فزعت ومكثت بأحد أركان الحجرة، فهدأ من روعها قائلًا:

- لا عليك طفلتي، أنا الشيخ السيد البكري، قدمت لكي أخبرك عن أبيك.

صعقت زبيدة قائلة:

- ماذا به أبي، هل هو بخير؟

أجابها وهو يتقهقر للخلف:

- لقد نال أبوك من المكانة والعلو ما نُلتُه.

وطار من بين مخروطات المشربية متهاويًا، هرول طيفُها خلفه مرددة:

- أين هو، خذني له. لكنه ابتعد سابحًا في ملكوت الله.

نهضت زبيدة فجأة من سريرها مفزوعة، أنفاسها تتسارع قائلة:

- أبي، أين أنت يا أبي؟ انفطر قلبي لغيابك.

ثم عادت لنومها والحزن يتمكن منها. استدرت للعجوز متسائلة:

- من هو البكري؟

- السيد البكري يا صغيرتي، شيخ له ضريح بجانب مشيخه الأزهر، كان شابًا نحيلًا ذهب عقله، وماتت أمه وهو في العشرين من عمره، فكان يخرج على العامة مكشوف الرأس عارى الجسد طالبًا الزاد والمال، فيعطونه الناس الزاد والمال، طالبين منه الدعاء لهم، فيدعو لهم ويستجيب الله، حتى ظن الناس به خيرًا، فاستغل أخوه الأكبر بركاته وألبسه العمامة والجلباب، وأدعى به الولاية والاعتكاف عن الناس، فظل الناس يتهافتون عليه ويجلبون

لـه المـال والهدايـا، حتـى وافتـه المنيـة، فطـاف النـاس بنعشـه يـرددون بأنـه يطـير في الهـواء، ونصبـوا لـه ضريحًـا ناحيـه وكالـة ذو الفقـار، ليـترددو عليـه ويطلبـون بركاته.

فى الصبـاح اسـتيقظت زبيـدة عـلى صراخ مسـعودة الجاريـة، فنهضـت مفزوعـة قائلـة:

ماذا حدث يا مسعودة ؟

هرولت لها مسعودة باكية، وبالكاد تلتقط أنفاسها وتقول:

- يقولون بالخارج إن سيدي البواب قتله الفرنسيون.

لم تكمل سماع الجملة، وسقطت مغشيًّا عليها.

فتحـت عينيهـا، لتجـد نفسـها راقـدة عـلى سريرهـا، حولهـا أماليـا وعـلي وخالهـا الحـاج حسـين بـن السـيد المؤقـت. نظـرت إليهـم ثـم أجهشـت بالبـكاء متسـائلة:

- أبي، لقد رحل هو الآخر.

فربت خالها حسين على كتفها قائلًا:

يـا صغـيرتي، لا بـد أن تفتخـري بأبيـك، لقـد رأى أهـل المقربيـة بقـوص شـعاع نـور بالسـماء يهبـط عـلى جسـده وهـم يوارونـه تحـت الـتراب، أبيـك يـا طفلتـي ولي مـن أوليـاء الله الصالحـين. نهضـت معتدلـة بمجلسـها متسـائلة:

- كيف عرفت يا خالي؟

- بالصبـاح، قـدم تاجـر صديـق قديـم لأبيـك، هـو مـن أهـالي قنـا ويعمـل تاجـرًا بالزيـوت، قـدم خصيصًـا ليخبرنـا أن أبـاك ولي، ظـل يحـارب العـدو الفرنـسي بجانـب طليقـك سـليم مـع قـوات مـراد، حتـى لقـي ربـه، وذهـب أهـل القريـة ليدفنـوه وعـلى رأسـهم هـذا التاجـر، فطـاف نعشـه مـترددًا بالقريـة والقـري المجاورة، طائـرًا بهـم، ليسـقط نـور مـن السـماء ينتـزع نـور أبيـك وروحـه، ويذهـب بعيـدًا في الأفـق، فيقيـم الأهـالي لـه ضريحًـا عظيمًـا بالقريـة، يـترددون عليـه لينالـوا مـن بركاتـه، كـما كانـوا ينالـون بـركات الشـيخ البكـرى.

شردت زبيدة متذكرة حلم الأمس والسيد البكري، فاطمأن قلبها لمكانة أبيها بين الصالحين، وزادت بكاءً، بينما علي وأماليا يواسيانها ويعزيانها.

مرت الأيام ومينو يتردد عليها بصحبة علي وأماليا، مهونا عليها أجواء الحزن التي تمكنت من روحها، حتى أتى شهر رمضان لتبدأ مظاهر تدين مينو بالصوم والصلاة. كنت أنا والعجوز نجر ذيولنا خلفه، وهو يتردد على مسجد زعلول يصلي التراويح بأول أيام الشهر الكريم، بينما كان شيوخ وعلماء رشيد يتحدثون عن نيته بالزواج من امرأة رشيدية، فظنوا بأنه يريد الزواج من ابنة الشيخ الجارم، لأنه دائم التردد عليه ليتعلم أصول الشريعه، فخاف الجارم الأقاويل وأسرع بتزويج ابنتيه لاثنين الورعين.

***

obeikandl.com

الفصل الثالث عشر

مُظَاهَرَةٌ نِسَائِيَّةٌ

١٧رمضان ١٢١٣/ ١٨ مارس ١٧٩٩:

بتلك الليلة كانت ألسنة الناس لا تخلو من الحديث والثرثرة، الكل يتناقل نفس القول من لسان لآخر، فترى الماشي يخبر الجالس ويقول له:

- ابنة البواب سيعقد قرانها الليلة على سارى عسكر الفرنسيين.

كنت مع العجوز بهذا اليوم، على موعد خلدته وثيقة ما زالت تشهد لهذا اليوم على حدث هز رشيد بأكملها. كانت عصفورة رشيد متوارية عن أنظار الرجال المجتمعين بحجرة الطخطابوش، ليعقدوا قرانها على فارس الفرنسيين الجنرال مينو الذي اختارت له اسمًا جديدًا هو عبد الله، وقبل عقد القران أشهر إسلامه أمام الجميع.

يعتلى المجلس في مقدمة الجالسين الشيخ أحمد الخضري مفتي السادة الشافعية برشيد، يجاوره الشيخ محمد صديق نائب قاضي رشيد ومفتي الحنابلة، وعلى يمينه الشيخ محمد غرا نائب القاضي ومفتي المالكية، وعلى يسارهم يجلس الأمير محمد بدوي جوريجي، بجواره أحمد أفندي جاويش مستحفظان، وبالصف المقابل يجلس الحاج محمد محيي الدين والحاج بدوي الشناوي وعلي

جاويش كتخدا الحاكم، يكتمل عددهم بخلاف الجنرال مينو وجنوده الذي يقف خلفه ستة جنود بأسلحتهم، يجلس أمامه على دكة منخفضة مترجمه روفائيل يترجم بعض الجمل صعبة الفهم من الشيوخ والفقهاء.

يقف مينو أمام الشيخ السيد أحمد الخضري المفتي الشافعي، لينطق الشهادتين قائلًا:

- أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله.

فيسجل مصطفى أفندى الكاتب ما يدور، ليكتب بوثيقة إشهار الزواج والإسلام معا، واضعًا الريشة بدواة الحبر الأسود، ليغمسها مرة أخرى ويعود لكتابة سطور الوثيقة حسب ما يمليه عليه الشيخ الخضري.

ما قولكم دام فضلكم في رجل أَحَبَّ الإسلامَ وأهله ورغب فيها تاركا لدين النصرانية ناطقًا بكلمتي الشهادتين مصدِّقًا على الوجه الأكمل، ثم أراد أن يتزوج امرأةً مسلمة على كتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم، فهل يجوز له حينئذ التزوج بها والعقد عليها بشروطه الشرعية؟ أفيدوا الجواب.

وبأدناه: الحمد لله، حيث كان الحال ما شُرِح في السؤال؛ فيجوز للرجل المسلم المذكور خطبة المرأة المسلمة والعقد عليها بشروطه الشرعية. والله أعلم. (كتبه العبد الفقير أحمد الخضري الشافعي لطف الله به).

وبأدناه: الحمد لله، حيث أقرَّ الرجل المذكور بالشهادتين بشروطها الشرعية؛ فيجوز له ان يعقد على المرأة المسلمة عقدًا شرعيًّا مستوفيًا لشرائطه الشرعية. والله سبحانه وتعالى هو الموفِّق. (كتبه الفقير محمد صديق الحنبلي عفى عنه).

وبأدناه: الحمد لله، حيث رغب الرجل المذكور في الإسلام ونطق بكلمتي التوحيد؛ جاز له أن يتزوج المرأة المسلمة، وأن يعقد عليها العقد الشرعي بشروطه الشرعية. والله أعلم. (كتبه الفقير محمد غرا المالكي غفر له وعفى عنه).

فبمحضر كل من ذكر أعلاه تزوج عبد الله باشا المذكور بمخطوبته زبيدة المرأة بنت محمد البواب التي كانت زوجًا لسليم أغا نعمة الله وطلقها وانقضت عِدَّتُها منه شرعًا على كتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم وصداقٍ جُملته: ألفا ريالٍ إثنتان معاملة، ومائة دينار ذهبًا محبوبًا، فالحال لها من ذلك المائة دينار المذكورة أقبضها لوكيلها الحاج حسين بن السيد محمد الموقت، فقبض منه ذلك عددًا بالمجلس بمعاينة من ذُكر أعلاه، وعليه الخروج من عهدة ذلك لها شرعًا، والباقي ألفا ريال الاثنان يحلَّان لها عليه بموتٍ أو فراقٍ؛ زوَّجَهَا له بذلك، وعقد نكاحها عليه وكيلها الحاج حسين الموقِّت المرقوم بإذنها له في ذلك بشهادة كل من: أخيها لأمها السيد علي الحَمَّامي ابن حسن البواب، والسيد أحمد، وشقيقه السيد إبراهيم المكلَّف كلٌ منهما ابني السيد سليمان النقرزان تزويجًا شرعيًا قبله للزوج المرقوم وكيلُه الحاج أحمد شهاب حسبما وكَّله صريحًا بالمجلس، بشهادة شهوده المذكورين، وعلى عبد الله باشا الزوج المذكور القيام لزوجته المذكورة في كل سنة تمضي من تاريخه أدناه بقضاء كسوة أقمشة شتاءً وصيفًا لائقين بحالها القيام الشرعي، وثبت ذلك لدى مولانا أفندي بعد أن ثبت لديه معرفة زبيدة المذكورة المعرفة الشرعية التي لا جهالة معها شرعًا، بشهادة كل من شهود توكيلها المذكورين ثبوتًا شرعيًا، وحَكم بموجبه حُكمًا شرعيًّا في الخامس والعشرين من رمضان سنة ثلاثة عشرة ومائتين وألف.

وما إن أعلن الخضري إتمام الزواج، حتى اندفعت زغاريد مسعودة وحسيبة، بينما كان مينو بوجهه الباسم المحمر يحييهم قائلًا:

- أشكركم، أشكركم.

فسلم عليه الحمامي مثنيًا على إشهاره الإسلام ومباركًا تلك الزيجة، والجميع يتهافت عليه ليبارك له وهو باسم لهم.

اختلى مينو بزبيدة بعد رحيل الجميع، إذ كانت أسعد اللحظات بالنسبة لها،

فقد تزوجت بمن أرادته وظنت أنه محقق أحلامها، صاحب النبؤءة، تجمعها به حجرة واحدة بدون خوف يصيبها ولا فزع كما كانت مع سليم، ترقد بأحضانه وتملأ جوفها بروحه، وجسدها بلمساته وعينيها بالنظر والتمعن به، أما هو فكان يحتضنها وكأنه يحتضن أرض الشرق، التي حلم دوما باحتضانها بحكمه، كانت له أمنية تحققت بامرأة اشتهاها فنالها.

بالصباح استيقظا سويًّا، ليطبع قبلة بجبينها بعد ليلة طالت بها معركة خاصة خاضها جنرال الغرب مع فتاة الشرق، لتسيل بها ينابيع من الشهوات المكبوتة منهما سويًّا، لينهضا ويصليان الصبح سويًّا، بينما كانت مسعودة تعد لهما الإفطار، ليذهبا سويا صوب الطاولة فيفتح لها عبد الله باسمه الجديد، الطاولة. فتعجبت، إذ لم تكن تلك عادات الرجال بمصر، فلم تعتد أن تجد رجلًا يفتح كرسيًا لتجلس عليه زوجته، ثم تفاجأ أكثر لتجده يضع منشفة الطاولة على قدميها، ولما بدءا بتناول الفطور مد يده ليطعمها في فمها وكأنها طفلة، ويتسامران ويضحكان سويا.

ظلا هكذا أياما في سعادة وحب، هو يطعم من جمالها وحسنها، وهي تنال من حبه وحنانه وحسن معاملته ما لم تره سابقًا مع سليم، حتى تناست تلك الغصة التي في قلبها من فراق والديها. وتراهم مسعودة بهذه السعاده، وترى تلك العادات الطارئة على بلادنا، فتذهب للسوق مخبرة النساء بأمر مينو وطيب معاملته. وفي صباح أحد الأيام تجمهرت النساء والفتيات بالسوق، وظللن يتحدثن ويثرثرن، وتجمع الرجال لأخذ نسائهم، فترى أحدهم يجر فتاة ويضربها على رأسها قائلًا: «فضحتيني»، والآخر يتحايل ويتودد لأخرى بالعودة للمنزل، والنساء جميعهن يهتفن نريد ساري عسكر الجنرال عبد الله باشا أن يأتي.

قدم مينو من بعيد يجر خلفه جنوده وزبيدة تجاوره وتتبعها مسعودة، حتى وصلوا أمام تلك المظاهرة النسائية الحاشدة، فسألهم:

- ما الأمر، أخبروني؟

تقدمت إحداهن وتدعى فاطمة قائلة:

سيدي، لقد تزوجت بنفس موعد زواج حضراتكم أنت والسيدة زبيدة، وزوجي رجل غليظ يعاملني كبقية الرجال برشيد بل بالمحروسة وأنحائها، لا يجعلني آكل معه، ولا يأخذني إلى الحمام العام مثلما تأخذ زوجتك وتعاملها معاملة حسنة، وتجعلها تتناول الطعام معك.

هتفت الجموع بصوت واحد:

- نريدك أن تأمر رجالنا أن يحذون حذوك ويعاملوننا مثلما تعامل زوجتك.

تقدم مينو هاتفًا بهم:

- أيها الناس، اسمعوني، أنا رجل قدمت من أوربا، تعلمت احترام النساء وتقديرهن، لكن رسولنا الكريم علمكم احترام النساء وحبهن منذ أكثر من ألف عام، فكيف لكم أن تعاملوهن هكذا، لن أقول لكم إلا قول رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم: «رفقًا بالقوارير».

وما أن انهى حديثه حتى النظر الرجال لبعضهم واضعين راسهم بالأرض، وذهب بعضهم لتطيب خاطر نسائهم، بينما مينو وزبيدة عادوا ادراجهم مبتسمين..

مرشهور قليلة على زواج مينو وزبيدة والسعادة تغمرها ، ما كان يشغل بالها الا التفكير بطفل يخلد قصة حبهم، أما علي الحمامي فقد عين بالديوان الذي انشاه مينو..

***

الفصل الرابع عشر

المَـهْدِيُّ المُنْتَظَرُ

القاهرة، أغسطس سنة ١٧٩٩:

كان الجيش الفرنسي يعيد هيكلته، بعد محاولته غزو الشام وعودته مقهورًا مدحورًا، يلاحقه المرض الأسود الطاعون لينفق معظمهم بالصحراء. ويعود نابليون إلى قصر الألفي بالأزبكية محبطًا، فقد هُزم وفقد أربعة آلاف جندي في طريقه للعودة بالطاعون اللعين، بينما كان مساعدوه يمدونه بالجرائد الآتية من الغرب لتعلن عن سقوط إمبراطوريته التي بناها بالغرب، وتمكن إنجلترا من معظم البقاع التي فرضت فرنسا سلطانها عليها، بينما مينو قد عاد هو الآخر من غزة التي فرض بها شخصيته الإسلامية، ليقنع الناس بتدينه، وكان قد خطب بغزة خطبة الجمعة على جموع المصلين، على عكس نابليون الذي أبرز شخصيته العسكرية بالشام، وعاد ليختلق الخلافات مع أعضاء الديوان الذي أنشأه، وأعطاه الشيوخ وعدًا قبل سفره بالولاء والإخلاص له هو وجيشه المرابط بالمحروسة لحين عودته من الشام. أما عن كليبر العائد هو الآخر منهزمًا من الشام، فعاد لينشغل بتكوين الجيش القبطي من المصريين بمساعدة المعلم يعقوب يوحنا وصديقه الجنرال ديزيه، بعدما عاد من الصعيد من ملاحقة مراد، وتمكنا ببطشهم من فرض الضرائب والجزيات على الفلاحين.

obeikandl.com

بدأ الحلم يتساقط رويدًا من رأس نابليون، حلمه بالشرق ومصر والشام والآستانة، فقد لقنه والي عكا أحمد الجزار درسًا قاسيًا وسحق بحلمه الأرض حين أجبره أن يعود أدراجه للعريش بعد حصار دام شهرًا أما سور مدينة عكا. بليلة ممطرة من أغسطس الحزين على قلب نابليون، كان يجلس بقصر الأزبكية بصحبة الجنرالات: كليبر، برتوليه، مونج، لان، مورا، دينو. وكان حزين الوجه، قاتم الجبين، تشتعل وجنتيه احمرارًا، وبدأ الحديث قائلًا:

- قضيت بمصر أروع أيام حياتي وأجملها، ففي أوربا الغيوم لا تجعلك تفكر في المشاريع التي تغير التاريخ، أما بمصر فان الذي يحكم بإمكانه أن يغير التاريخ، لولا هزيمتي أمام الجزار لتمكنا من فتح عكا والسيطرة على الشام ومصر معًا، ولولا أيضًا هذا المرض الأسود اللعين، لما فقدت كل هؤلاء الجنود. لقد قررت جمعكم اليوم لأخبركم بأمر عودتي للجمهورية الفرنسية، كنت أسعى أن أبني إمبراطورية عظيمة بحضارتنا وثقافتنا، الرسول محمد بنى إمبراطورية من لا شيء، من شعبٍ جاهلٍ بنى أمة كبيرة ودولة مترامية الأطراف، من الصحاري القفار بنى أعظم إمبراطورية بالتاريخ، لا أنسى أيضا أن الحنين يتملكني، وحنينى لجوزفين يداهمني، لذا سأولى قيادة هذا الجيش العظيم لك يا كليبر.

كان يتحدث والدموع تغالبه، والجميع متأثر لكلامه، بينما كليبر بدت عليه مشاعر الامتعاض، فأكمل بونابرت قائلًا له:

- إن أردت أن تحكم مصر طويلًا، عليك باحترام مشاعر الناس الدينية واحترام حرمات منازلهم، آمرك أن تضع أي خلافات بينك وبين أي جنرال آخر جانبًا، ضع نصب عينيك مصلحة الجمهورية أولا. وأخيرًا أوصيك خيرًا بالسيدة نفيسة صديقتي، فأصدقاء نابليون لا بد أن يُعاملوا باحترام، فأنا لم أخن أي صديق بحياتي، ترون كيف كنا نقف محاصرين لعكا وصديق الدراسة أنطوان دي فليبو يحارب بجانب الجزار ضدي، ولم أخنه أو أطعنه من الخلف،

بـل انسـحبت مثنيًـا عـلى عزيمتـه أمامـي، لا بـد أن تعلمـوا أن نابليـون مخلـص لأصدقائـه.

ومـا إن أنهى حديثـه، حتـى اسـتعد هـو والجنـرلات الخمسـة، للتوجـه صـوب الإسـكندريه، ليعتـلي الفرقاطتـين اللتـين بقيتـا بعـد معركـة أبي قـير التـي دمـر فيهـا الأسـطول الفرنـسي بواسـطة الإسـطول الإنجليـزى في أغسـطس مـن العـام الماضي.

نظر العجوز إليّ قائلًا:

- رأيـت يـا عزيـزتي، مـاذا يفعـل الحـب بالحـكام، تمكنـت زبيـدة مـن اكتسـاب قلـب مينـو، أمـا نفيسـة فعجزت عـن فعـل ذلـك مـع بونابـرت، فـلا جمالهـا أغـراه ولا مالهـا ملأ عينيـه، فقـد بهـت جمالهـا مـع الذاهبين: علـي بـك الكبـير، ومـراد بـك، الحـب هـو الحاكـم الوحيـد، تمكـن مـن بونابـرت صـوب جوزفين، وشـد مينـو صـوب زبيـدة، مغمضًـا عينـه عـن زينـب الأسـود.

بادرت مسرعة متسائلة:

- وماذا عن حلم مينو بحكم مصر، بعدما تولى كليبر الحكم.

أجابني مندهشًا:

- تعب لساني منك، قلت لك لا تستعجلى الأمور.

دمنهور، إبريل سنة ١٨٠٠:

كانـت قريـة دمنهـور الواقعـة بوسـط البحـيرة، وتبعـد أربعـين ميـلًا عـن مدينـة رشـيد، مشـتعلة بأحـداث لأول مـرة تحـدث بالتاريـخ الحديـث، فبعدمـا ولى عهـد الأنبيـاء والرسـل بخاتمـة محمـد صـلى الله عليـه وسـلم، منبئًـا أنـه سـيأتي بآخـر الزمـان رجـلًا يُقـال لـه المهـدي المنتظـر، يخلـص الأرض مـن الـشر ويحكـم بالعـدل.

ظهـر شـخص أعـرابي طويـل القامـة، رفيـع الجسـد، يبـدو عـلى ملامحـه قيـظ الشـمس وحرقتهـا، بالثلاثينيـات مـن عمـره، ادعـى أنـه المهـدي المنتظـر، وأنـه سـيخلص النـاس مـن احتـلال الفرنسـيين والهـرج والمـرج، وأعطـى لهـم دلالات

كونه المهدي حقًّا، فالتف حوله العربان والفلاحون، حتى اكتمل عددهم بالآلاف، ظل يلاحق الفرنسيين بكل صوب وجانب، في الصحراء تارة، والزراعات تارة أخرى، حتى أنهكهم وقتل منهم الكثير. جمع الجنرال جوسف ويكتور جوليان حاكم ولاية الثغر جيشًا من الجنود، المدججين بالأسلحة ولاحقه بالزرعات عند قرية دمنهور. ونجح ويكتور في سحق هذا المهدي المنتظر، وهزمه عند مفترق طرق، ملقيًا القبض عليه مع بعض أعوانه، واتجه به صوب رشيد ليسلمه للجنرال مينو لينظر بأمره.

وصل ويكتور لرشيد ومعه هذا الشخص وأعوانه مكبلين تجرهم الحمير والخيول، بينما كان مينو بأحضان زبيدة، وقد جاءه أحد الجنود ليخبره أن ويكتور ينتظره مع غنيمته، ولينتفض مينو من أحضانها متوجهًا إليه. أخبره ويكتور أن هذا الشخص المجنون، يقاتل الفرنسيين ويدعى أنه مخلص آخر الزمان عند المسليمن، وأنه سيحكم العالم. فطلب منهم مينو أن يتركوه معه وحدهما. اقتاده الجنود لمنزل الميزوني، ليحدثه مينو. دخل مينو عليه بينما هو مكبل، فبادر بسؤاله:

- ما اسمك؟

أجابه بكل كبرياء:

- اسمي يطابق اسم الرسول محمد بن عبد الله.

فوجه له سؤالًا آخر:

- هل أنت حقا المهدي المنتظر؟

- نعم، وكل من بايعني تأكد من قدراتي، وسحقي للفرنسيين وقتلهم.

فبادر مينو قائلًا بتأثر:

- أتدري أنني أصدقك، وأبايعك وأعلم أنك حقًا المهدي المنتظر.

عند ذلك اندهش الرجل ولكنه أبى أن يظهر ذلك، ولكنه رد عليه:

- كيف ذلك وأنت فرنسي مشرك، لا تؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم.

فابتسم مينو بوجهه قائلًا:

- اخرج على الناس، ستعرف منهم أنني مسلم، أشهرت اسلامي وتزوجت مسلمة، وأقيم الفروض جميعها.

فابتسم هذا الأبله، الذي ارتسمت على ملامحه علامات الجنون. بينما مينو بدأ في استمالته قائلًا:

- بالطبع ستحكم العالم بأكمله، أما أنا ساعينك فقط في حكم مصر، لكن يحكم مصر هذا القبطي البغيض كليبر، الذي يكون جيش من النصاري المتعمدين أصحاب الأديان الرديئة، لجني الضرائب الباهظة من الكادحين والمساكين.

فكشف المهدي عن أنيابه قائلًا:

- أطلق سراحي وسأذهب لأقتص منه مع جيش من أعوانى.

فابتسم مينو بخبث قائلًا:

- لا، ليس كذلك بالطبع ستُهزم، ترى الدولة العثمانية لا تقدر على هزيمته، فهل ستقدر أنت بمن معك من هذا العدد القليل من المقاتلين على هزيمته؟

فكر قليلا ثم أجابه:

- الله معى، وأنت أيضًا، سنحارب سويًّا.

- لا، الحل هو قطع رأس الأفعى حتى لا تقوم مرة أخرى، فبمقتل كليبر لا تقوم للفرنسيين قائمة.

فاتسعت عينا الرجل قائلًا:

- كيف، ومتى؟

- اترك الأمر لي. ما عليك إلا أن تفلت من المخبا الذي سأجعل جنودى يحتجزونك فيه، وتتجه صوب الصحراء، لتأتي لي بعد شهر من الآن متنكرًا، وسأرتب معك كل شيء.

تهللت أسارير المهدي، واضعًا يده على كتف مينو قائلًا له:

- نصرك الله على أعداء الإسلام، سنعمل سويًّا عليإاعلاء كلمة السلام، وسأمنحك حكم مصر، حال وصولي لحكم العالم.

اقتاده الجنود إلى مخزن الغلال بشارع البحر ومعه أعوانه، ولما انشق الصباح فتح الجنود المخزن فلم يجدوه، فقد فرَّ هاربًا ليلًا بمساعدة سرور.

***

obeikandl.com

الفصل الخامس عشر

القَافِلَـــةُ

رشيد، مايو سنة ١٨٠٠:

مساء ليلة صافية، دخل مينو مخدعه على زبيدة وهو عابس، بينما هي كانت تبدو على ملامحها السعادة، فألقى عليها السلام وجلس بجوارها، ناظرًا لها ثم قال:

- أريد أن أخبرك بأمر.

فتنهدت قليلًا وقالت له بصوت ناعم:

- ليس أهم من الأمر الذي أريد أن أخبرك به.

فنظر لها باندهاش قائلًا:

- ما الأمر يا حبيبتى؟

فنظرت له بدلال قائلة:

- أخبرني أنت أولًا، ماذا حدث معك؟

فرد عليها وهو عابس:

- يا زبيدة، إن الأمور تزداد سوءًا مع ذلك الغبي كليبر، فبطشه أثار الناس ضده، ثارت القاهرة ضده، وجمع المماليك أعوانهم، فهاجوا وضربوا بيد

من حديد عليه، فما كان منه إلا أن دخل حي بولاق ودمره عن بكرة أبيه وقتل كل من به، حتى إن هذا السفاح فرط الرمان كان يجر خلفه رؤوس سكان الحي معبأة في أجولة.

- وماذا عن اتفاقية العريش التي أبرمها كليبر مع العثمانين والإنجليز؟

أجابها بضحكة بلهاء:

- شر اتفاقية أبرمها من ثلاثة وعشرون بندًا كلها إهانات لمكانة الفرنسيين، ويذلون جنودنا بالرحيل بشروطهم المتعجرفة، ثم بعد ذلك انقلبوا عليه خائنين المعاهدة، وأرسلوا قواتهم تتجسس علينا بحرًا مرة أخرى وتناوشنا.

صمتت قليلًا ثم قالت:

- لعل أمر الرجوع عنها لصالحك، فسياسيات كليبر لإدارة الحملة كلها باءت بالفشل.

- لن تعهد حكومة الإدارة أو نابليون بتولي الحملة لي ما دام كليبر على قيد الحياة.

فاتسعت عينا زبيدة قائلة بقلق:

- هل ستفعل ما أخبرتني به سلفًا؟

نظر لها بكل ثقة وحدة:

- نعم عزيزتي، كليبر أفسد كل طموحي بالغرب، وأتى للشرق ليحمل راية الحكم عني، وأوكل لنفسه قتل المسلمين وإعلاء شأن الاقباط بمساعدة أعداء الإسلام، بل تطرق للتحكم بالتجارة عبر الموانى التي أعطى الفرصة للعثمانين والإنجليز اختراقها والتحكم بها.

ثم أكمل وهو يعتدل بجانبها قائلًا:

- منذ يومين جاءني جندي منهك وبائس، كان يفكر بالانتحار لولا أنني بحكمتي أقنعته بالعدول عن ذلك.

اندهشت زبيدة قائلة:

- ولما فكر بذلك؟

- وزع العثمانيون والإنجليز منشورات على الجنود الفرنسيين، تحرضهم على الثورة ضد كليبر، وحثه على سرعة الرحيل من مصر، فحدث انشقاق بالفرقة الثانية وتجاوبوا مع تلك المنشوارت، وعندما علم كليبر قام بمعاقبتهم أشد عقاب، ومنع عنهم رواتبهم وإمدادهم بالأطعمة، فما كان من أخيه وصديقه إلا أعلن اليأس وقرر الانتحار، وألقى بنفسه في فلقي حتفه، بينما سُرِّح هذا الجندي على فرقتي الخامسة فجاءني محبطًا وفي أبأس الحال.

اقتربت منه زبيدة قائلة:

- لا بأس عليك حبيبي سيكون كل شيء على ما يرام.

احتضنها بشدة ثم بادر مسرعًا قائلًا:

- ما الأمر الذي كنتي تريدين أخبارى به؟

رفعت وجهها باسمة ثم قالت:

- تتذكر يوم طلبت مني الزواج؟

- نعم، أتذكر جيدًا واحفظ كل تفاصيل لقائنا، واتذكر لمعة عيناك عند رؤيتي.

بينما هو يكمل كلامه، نظرت له بنفس لمعة عينيها التي ذكرها وقالت:

- سأخلد ذكرى زواجنا بطفل يحمل اسمك.

عند ذلك لم يشعر بنفسه، بما يفعل بها، حملها وظل يدور بها، بينما هي تضحك بصوت عال قائلة:

- رويدًا حبيبي.

أنزلها بعناية، ثم وضعها على السرير، قائلًا بفرحة عارمة:

- أرجوك، لا تتحركي أبدًا، لا أريدك أن تنهضي من السرير لأي سبب.

ابتسمت زبيدة قائلة:

- لا تقلق، سيأتي ولي العهد بكل تأكيد.

اقترب منها واضعًا قبلة على جبينها قائلًا:

- أنا أحبك كثيرًا.

- أنا أيضًا، أعشق الأيام التي جمعتني بك وستجمعني بك لآخر العمر.

غزة، يونيو سنة ١٨٠٠:

كنت مع العجوز نجر ذيولنا بقافلة خلف لفيف من الشوام العاملين لدى الحاج الزهدي، تاجر الصابون والدخان، بعضهم يركب الحمير والبعض الآخر يعتلي الجمال المحملة بأجولة الصابون والدخان، يتقدمهم على هودج كبير الحاج زهدي، صاحب الخمسين عامًا. بمنتصف الطريق من غزة للعريش، استراحت القافلة لشرب الماء وتناول الزاد، لينزل زهدي من هودجه يتفقد القافلة، فبينما هو يمر لمح شابًا طويلًا رفيع الجسد قاتم الوجه غريب الهئيه، يجلس القرفصاء جانبًا، فاقترب منه قائلًا:

- من أنت؟

رفع رأسه له قائلًا:

- أنا سليمان بن محمد أمين.

تعجب زهدي قائلًا:

- أنت ابن الحاج محمد أمين تاجر السمن والزيوت بحي البياضة بحلب؟

- نعم، أنا.

فسأله متعجبًا:

- ما الذي جاء بك لقافلتنا؟

- أردت العودة لدروسي بالأزهر، فرحلت ولم يعلم أبي برحيلي.

فاندهش الرجل قائلًا له:

- لكن الأمور بمصر مشتعلة، والفرنسيون يبيدون الأخضر واليابس، فمالك بالدارسة بوقت حرب كهذا.

رد عليه وهو بائس:

- كرهت وجودي بحلب والشام كله، أريد رؤية أصدقائي.

- كم عمرك يا شيخ سليمان؟

- أربعة وعشرون عامًا.

- هل لديك زوجة؟

- كلا، لم أتزوج قط.

- كيف لم تتزوج، وأبوك عين من أعيان حلب؟

فتنهد سليمان قائلًا:

- لا أريد الزواج الآن.

صمت زهدي قليلًا، بينما كانت القافلة تستعد لاستكمال الرحلة، ثم بادره بالقول:

- إن احتجت الزاد أو الماء، أخبر اطلب ما تشاء من غلامي هذا وسيعطيك كل ما تريد.

ثم ابتسم له قائلًا:

- رحلة سعيدة.

تركه متجهًا لهودجه، بينما سليمان كان ينتهي من تناول لقيمة صغيرة من خبز القمح.

اقتربت من العجوز متسائلة:

- من هذا، ولماذا أتينا إلى هنا؟

- هـذا يـا صغـيرتي، سـليمان محمـد أمـين، أو بالأحـرى سـليمان الحلبـي، شـاب قـادم مـن حـي البياضـة بحلـب، أبـوه يعمـل تاجـرًا للسـمن والزيـوت كـما سـمعتي، وكان يـدرس بالأزهـر الشريـف مـن عـدة أعـوام قبـل قـدوم الفرنسـيين لمـصر، لكنـه أخفـق بدروسـه وتمكـن منـه الفشـل، عـاد لأبيـه مـرة أخـرى، فقـرر أمـين أن يخطـب لـه فتـاة مـن عفريـن، ابنـة تاجـر قمـح، لكـن قلبـه لم يخفـق لهـا، حتـى دق لفتـاة كرديـة مـن شـمال العـراق، شـيعية المذهـب، فعـرض عـلى أبيـه أن يفسـخ خطبتـه مـن فتـاة عفريـن، وأن يخطـب لـه فتـاة الكـرد، فرفـض وعاقبـه بشـدة، فكيـف لابـن رجـل سـني المذهـب أن يتـزوج بشـيعية كافـرة بنظـره، فلـما تمكـن اليـأس مـن قلـب سـليمان، قـرر الفـرار مـن تسـلط أبيـه، فتسـلل أولا لغـزة ومنهـا لقافلـة الصابـون التـي نحـن بهـا الآن.

- وما أمره من حكايتنا؟

فنظر إلي ولم يتحدث، وأكملنا الطريق الشاق بالصحراء مع القافلة.

رشيد، يونيو سنة ١٨٠٠:

كان عبـدالله مينـو يجتمـع بأعضـاء الديـوان، وعـلى رأسـهم عـلي الحمامـي، يناقشـهم بأمـور الزراعـة والموروايـث وغيرهـا مـن الأمـور الإداريـة للمدينـة، بينـما هـم في ذلـك عـاد المهـدي المنتظـر بهيئتـه المعهـودة، وجلبابـه وعمامتـه، وصـل المدينـة عـبر مركـب أحـد الصيادين بالنيـل، عنـد بـرج مغيـزل، هابطًـا صـوب منـزل الميـزوني، لينتهـي مينـو مـن مجلسـة عائـدًا لمنزلـه بصحبـة عـلي الحمامـي، وبخلفـه بعـض جنـوده. تحـدث الحمامـي لمينـو قائـلًا:

- الأمـور تـزداد سـوءًا، فقـد قبـض كليـبر عـلى الشـيخ السـادات، وجـرده مـن ملابسـه وأموالـه وأملاكـه، ليضربـه هـذا المدعـو فـرط الرمـان بالعصـا عـلى قدمـه عـشر صباحًـا، وعشريـن مسـاءً.

رد مينو متسائلًا:

- ماذا عن باقى أعضاء الديوان؟

- يحاولون تلاشي غضب كليبر، فيدفعون الجزية المقررة عليهم، حتى إنه منع صرف رواتبهم منذ يناير الماضي.

- لا تقلق يا علي، سأبذل قصارى جهدي لرفع الأذى عن مشايخ الأزهر.

أكملا الطريق صوب المنزل، حتى وصلا ليفاجأ مينو بالمهدي ينتظره أمام البوابة كاشفًا وجهه، بينما علي استغشى أمره ولكنه لم يتذكره. أما مينو فكان متأكدًا أنه سيفي بوعده ويعود. قدمه مينو للحمامي قائلًا:

- أعرفك على صديقي محمد تاجر الأقمشة المعروف بدمشق.

فألقى الحمامي السلام على الضيف، ثم استأذن للذهاب لزوجته. أما مينو فاقتاد المهدي لرواق المنزل، ثم قال له:

- كنت متأكدً من عودتك، عددت الأيام حتى عودتك، وتهدأ الأيام وتقدم على فعل ما سيرفع مكانة الإسلام.

- إن المهدي لا يخلف وعده مهما حيا أبد الدهر.

ابتسم مينو، ثم أخرج من بين طيات ملابسه خنجرًا، قائلًا له:

- هذا الخنجر أورثني إياه أبي لأقاتل أعدائي، إن أشد أعدائي هو عدو الإسلام كليبر، اذهب واقتص منه وعُد لى بالخنجر، حتى أحميك من بطش الجنود، وأعلنك بنفسي أمام الملأ أنك أنت المهدي المنتظر حاكم الكون كله.

أمسك بالخنجر وعيناه تشتعلان بالشر، ثم أوراه بين طيات ملابسه، وحيَّا مينو منطلقًا بأقصى سرعة للذهاب إلى المحروسة.

***

الفصل السادس عشر

سُلَيْمَانُ الحَلَبِيُّ.. فِدَائِي فِي كُلِّ حَالٍ

قصر الأزبكية، ١٤ يونيو سنة ١٨٠٠:

بتلك الليلة كانت القاهرة هادئة هدوءًا يشبه هدوء الطير بعد فرفرته من الذبح. هدوءًا يكشف عن ذبيحة مختلفة عن الذبائح التي سبقت تلك الليلة. دخلنا أنا والعجوز إلى رواق قصر الأزبكية عصرًا، حيث كان كليبر ومعه قسطنطين كبير المهندسين، يتجولان بالحديقة ويتحدثان بأمور الجيش، للاستعداد للذهاب بموعد عشاء بمنزل الجنرال داماس رئيس أركان الحرب، الذي يسكن منزل عبد الله باشا الكاشف، والمجاور لقصر الأزبكية، والذي استولى عليه الفرنسيون بعد دخولهم القاهرة.

وبينما كليبر يسير في خيلاء وكبرياء بجوار قسطنطين، وعلى مشارف بوابة الحديقه، دخل عليه المهدي وهو مُلثم، يمشي بهيئة شحاذ، فمد له يده وكأنه يطلب المساعدة المالية، فنهره كليبر قائلًا:

- كف يدك عني أيها الرديء واذهب من هنا.

فاستل من بين طيات ملابسه الخنجر، وانقض في عنف وإصرار عليه، ليغرز الخنجر بقلبه، ثم يخرجه ويطعنه مكررا حتى الطعنة السادسة التي

لحقت بأحشائه، فهرع قسطنطين مستنجدا بالجنود أو أي مساعدة، فلاحقه المهدي بطعنة بظهره، ليستدير له مقاومًا، فيبادره بطعنة أخرى لاحقت كبده، فخر ساقطًا بجوار كليبر. بينما طار المهدي بشوارع الأزبكية، متجهًا ناحية الأزهر، والخنجر ممتلئ بالدم بين طيات ملابسه، أما كليبر وقسطنطين فكانا غرقين في دمائهما كالذبائح في عيد النحر، ليخرج أحد الجنود للحديقة من داخل القصر، فيجدهما ملقيان على الأرض، سابحين ببحر من الدماء، فينهار ويهذى حتى يجتمع الجنود جميعهم، ليذهب أحدهم لمنزل داماس مستنجدا به من الفاجعة، فيحضر داماس على عجل، فيجد كليبر قد لفظ أنفاسه، بينما قسطنطين يصارع الموت وما زالت عروقه تنبض.

يأمر داماس الجنود أن يلحقوا بالقاتل بكل أحياء المحروسة ولا يعودوا إلا به. أما المهدي فكان قد وصل إلى النيل، واعتلى أحد قوارب الصيادين، متجهًا صوب رشيد، ليكتشف وهو بالقارب أن الخنجر وقع منه ولا يدرى أين وقع. بينما كان الجنود الفرنسيون يكشفون عن أنيابهم ويعلنون الدمار لموت قائدهم ويطيحون بكل من يقع بطريقهم، حتى إن داماس أوكل لفرط الرمان مهمة البحث عن القاتل، والبطش بكل من يشكوا فيه.

بتلك الأثناء كان سليمان يجلس مع زملائه، بمسكنهم التابع لمشيخة الأزهر، ناحية وكالة ذو الفقار، كان زملاؤه الأربعة محمد الغزي وعبد الله الغزي وعبد القادر الغزي وأحمد الوالي يضحكون من أمر سليمان الذي أنهكه الحب، حتى أتى به لمصر، ليرجع للدارسة التي كان يكرهها ويخفق فيها، حاولوا التخفيف عنه مما يعاني قلبه، ولكن اليأس والحزن تمكنا منه، تركهم ليكملون ضحكاتهم وتهكمهم، وذهب ليحتسي كوبًا من القهوة بالمخدع الكبير، ناحية باب الأزهر الكبير. بينما هو يمشى صوب المخدع الترفيهى، وجد الفرنسيين يدوسون بخيولهم وأقدامهم بداخل أروقة الأزهر، يطيحون بكل ما يأتي في مواجهتهم، وانطلقت أصوات مدافعهم تصم آذان الناس، فهرع سليمان للهرب، وبينما هو

يجري عثرت قدماه بشيء، فوقف قليلًا يتفقد ما تحت قدميه، فوجد خنجرًا ملطخا بالدماء، وقطع اللحم البشري اللاصقة بحوافه، تفحصه جيدًا ثم خبئه بين طيات ملابسه، وأكمل العدو ولكنه لم يتسطع الدخول ناحية مسكنه، إذا وجد فوجًا من الفرنسيين يعيثون بخيولهم وحميرهم داخل مساكن الأزهر، فقرر التنقل بين شوارع القاهرة، لحين هدوء ثورتهم ضد الناس.

حل المساء وهم ما زالوا هائجين، لم ينقص من شرارة غضبهم شيء، حتى إن داماس ألقى القبض على الشيخ عبد الشرقاوي شيخ الأزهر، ومعه قاضي مصر الشيخ العريشي، ليضغط عليهما للإدلاء باسم القاتل، لأنه ظن أنهما من المحرضين على قتل القائد العام كليبر.

التفت العجوز قائلًا:

ترين دهسهم بالأزهر، ليست هذه المرة الأولى يا صغيرتي، فعند قدومهم دخلوا الأزهر ودهسوا بخيولهم وأقدامهم وأحذيتهم، كل شبر بالجامع الأزهر، وأحرق كليبر وجنوده كل المصاحف التي وقعت تحت يديه، هذه المرة دخل رجال كليبر أيضًا، ولكن للانتقام ممن قتله.

رشيد، ١٥ يونيو سنة ١٨٠٠:

وصل المهدي رشيد فجر اليوم التالي، بينما كان مينو يستعد للرحيل للقاهرة عند وصول إشارة له بواقعه اغتيال الجنرال كليبر. عند البوغار كان مينو يعسكر، لحين وصول الفرقاطة التي ستقله عبر النيل للأزبكية. بينما كان هذا المهدي في مشارف دخوله للبوغاز بمركب أحد الصيادين، فلوح من بعيد لمينو بالتحية، فابتسم مينو بينما كان يشير لجنديه الخاص جوزيف المتمركز على المدفعية ليطلق وابلًا من الأعيرة النارية صوب القارب، فأصيب المهدي والصياد وسقطا في النيل، وانشقت المركب نصفين وغاصت إلى أعماق النيل، ليركب مينو الفرقاطة وهو باسم، ويتجه صوب مجده الجديد.

بصباح نفس اليوم، ولكن بالمحروسة، كان بارثلميو وهو فرط الرمان، ذلك الرجل غليظ الوجه عريض المنكبين، صاحب الوجه المحمر، يرتدى على رأسه شيئًا يشبه الخوذة، يتدلي منها لآلئ تشبه الرمانة المنشقة. هيئته مرعبة لمن يراه، عند رؤيتي له ساورنى الرعب والرهبة، كان يقف بأول رواق الأزهر ممسكًا بسوط من الجلد الغليظ، بينما يصطف طلاب الأزهر أمامه، كالقطيع يجلدهم بالسياط واحدًا تلو الآخر، لا نسمع إلا صراخًا وعويلًا يجلجل باحة الأزهر، أما سليمان فكان ينظر من بعيد مشاهدًا تلك المشاهد، وقلبه يرفرف من الألم لرؤيته زملائه يجلدون، ظل يبكى ويحترق من داخله، ويتلو آيات القرآن الكريم، وبينما هو يبكى رأه أحد الجنود الفرنسيين، فأطلق صافرة الإنذار فاجتمع الجنود وظلوا يطاردونه من شارع لآخر، وسليمان يسلك أعوج الطرق هربًا بكل سرعته، حتى وصل ناحية قصر الألفي بالأزبكية موقع الحادث، فتسلل لمنزل مجاور له مختبئا من بطش الجنود.

قلت للعجوز

- ما قصة هذا المدعو فرط الرمان أو بارتلميو؟

- يا عزيزتي، هذا الشخص يناديه المصريون والمماليك برطلمين، كان يعمل عند محمد بك الألفي، يجمع الضرائب الباهظة، ويبطش بالفلاحين والعامة، يمتلك حانوتًا بالموسكي يبيع به القوارير الزجاجية التي تملأ بالخمور والمنكر، حتى جاء نابليون، وعينه كتخدا مستحفظات المحروسة، وأصبح وكيلًا لكليبر، فسكن ببيت يحيى كاشف بحارة عابدين، الذي اغتصبه بعد مجيء الفرنسيين، حتى إن بونابرت أوكل له مهمة البوليس الجنائي، يعاونه في ذلك بعض المغاربة والأروام والجزائريين، أحب شيء لقلبه هو قطع الرقاب، لو كنت رأيته وقت ثورة القاهرة الثانية لعلمتِ ما أعني.

- يعني ذلك أنهم يستخدمونه الآن لجلد عزيمة المصريين حتى يبرز القاتل ويقر بفعلته؟

- نعم، وهو قد أحب ذلك، فجاءته الفرصة على طبق من ذهب ليشفى غليله ويعذب ويقطع الرقاب، ويتلذذ بذلك، بل يكاد يكون مصاص دماء هذا العصر.

كانت عساكر الخيالة الفرنسية، تنتشر كالنمل بشوارع القاهرة، تتجول بالساعات بحثًا عن مزيد من طلاب الأزهر وشيوخه لجلدهم بتعليمات من فرط الرمان. بينما كان الخيال الطبنجي جوزفين برين ومعه الخيال الطبنجي روبرت، ، يمران من أمام قصر الألفي ليلًا، لمحا من بعيد خيالًا لأحدهم محاولًا الهرب خارج المنزل المجاور للقصر. اتجها بسرعة صوبه وهما يطلقان الأعيرة النارية بالهواء، حتى يقف، لكنه تعثر ووقع أرضًا، فتمكنا من إحكام قبضتهما عليه واقتياده جرًّا خلف الخيل، حتى وصلا لفرط الرمان. فتشه الخيال روبرت، فوجد بين طيات ملابسه الخنجر، فأمسكه فرط الرمان ليجده ملطخًا بالدماء، فقال له غاضبًا:

- أنت القاتل، أيها الزنديق.

وظل يضربه بالسوط بشدة، بينما سليمان صامت يتألم، ثم استدار لروبرت قائلًا له:

اجلب لى كل أصدقائه بمسكنه بعد أن أساله عن مكان سكنه ومع من يسكن، فحاول سليمان إنكار ذلك، إلا أن صوت السوط والألم الناتج عن ضرباته أجبره على الاعتراف. طار الخيال روبرت، ثم عاد بصحبه الشيوخ الأربعة يجرهم مكبلين خلف الخيل، ليخلع فرط الرمان عباءته ويبقي بالسروال، ويظل يجلدهم بعنف وافتراء جميعًا حتى يعترفوا بأنهم منفذين الجريمة، حتى نفذت عزيمته ورق قلبه لأصدقائه، فصرخ قائلًا:

- اتركهم، أنا القاتل، وهذا الخنجر هو ما نفذت به جريمتي.

فتوقف عن جلدهم ونظر له قائلًا:

- هل حرضوك على فعل الجريمة؟

فرد وعزيمته تهبط للهاوية:

- لا، هم لايعلمون شئيا أن المخطط والمنفذ.

فامسك فرط الرمان السوط مكثرًا من ضرب الشيوخ الأربعة قائلًا بحدة:

- كيف يسكنون معك، ولا يعلمون أنك مقدم على فعلتك هذه؟

حتى أن السوط كاد صوته يخرق آذان الحاضرين، فنطق سليمان بصوت عال قائلًا:

- اتركهم، هم يعلمون أنني مقدم على فعلتي، وحاولوا إثنائي عن ذلك ولكنني صممت على فعلتي.

فنظر له الشيوخ والدموع تترقرق من أعينهم، بينما فرط الرمان يمشي مختالًا رافعًا هامته، متوجهًا صوب قصر الأزبكية، والخيول تجر وراءها الشيوخ الأربعة وسليمان، حتى وصلوا إلى القصر لملاقاة الجنرال داماس، في حين كان الجنرال عبد الله مينو قد وصل. نظر مينو بدهشة وهو بباحة القصر متسائلًا:

من هؤلاء يا بارثلميو؟

- سيدى الجنرال هؤلاء هم القتلة، ثم أشار على سليمان هذا هو منفذ الجريمة، بينما هؤلاء كانوا يعلمون ولم يبلغوا عن نيته بالجريمة.

اصيب مينو بالصدمة، فبادر قائلًا:

- هل تاكدت من صحة اعترافتهم ؟

- نعم، لقد وجدنا هذا الخنجر بين طيات القاتل هذا.

تملكت مينو الرهبة، ودارت برأسه شكوك كثيرة، سائلًا نفسه كيف وصل هذا الخنجر لهذا الفتى؟ فطلب منهم أن يتركوه معه وحدهما، فأدخلوه حجرة برواق القصر، فدخل خلفه والحيرة تعلو وجه. نظر له مينو بحيرة شديدة

ودهشة من أمر هذا الفتى الصغير رفيع الجسد الذي تمكن الهزال من ملامحه، حتى برز فكاه من وجه. ثم بادر قائلًا له:

- أعلم أنك المنفذ، قل لى الحقيقة وسأساعدك.

أجابه سليمان وهو ملقى على الأرض مكبلًا:

- أنا المنفذ، وهذا الخنجر هو أداتي للجريمة، فقط ساعد زملائي ليس لهم ذنب.

فاقترب منه مينو متسائلًا:

- أين وجدت الخنجر؟

فنظر له سليمان قائلًا:

- ألم تقل بخطبة الجمعة بغزة، إن الله حافظ لنا في كل الأوقات، وإن القدر لا مفر منه.

فنظر له مينو متعجبًا:

- هل حضرت خطبة الجمعة التي ألقيتها بغزة.

- نعم، أعلم أنك مسلم حقًا وأنك أردت مساعدتي، انقذ زملائي الشيوخ، إن أنا أنكرت التهمة لن يجدي نفعًا، فقد اقتنعوا بي أنى القاتل لا محالة. أنا وجدت الخنجر، ولا أعرف لماذا احتفظت به.

وضع مينو يده على كتف سليمان وربط عليه بشدة قائلًا:

- وددت مساعدتك يا صغيري.

رد سليمان بانكسار:

- القدر يا سيدي وقضاء الله هو المنقذ.

خرج مينو من الحجره، مستدعيًا الجندي روبرت ومعه فرط الرمان، قائلًا لهما أن يقتادوه للمشفى التي يرقد بها المهندس قسطنطين ليتعرف عليه، كان

مينو يقول لنفسه وهو يصعد للدور الأعلى بالقصر:

- سينكره قسطنطين، ولكنهم لن يرحموه بالمحاكمه، قضى على هذا الفتى المسكين.

صعد مينو لمخدعه الجديد بقصر الألفي الذي سبقه فيه بونابرت وكليبر، ظل يفكر قائلًا لنفسه:

- كيف ورط هذا الفتى نفسه في ذلك، لعل الله أرسله لي كي يرفع عن رأسي ضغط الجنود وثورتهم ضد الناس من أجل هذا النافق كليبر.

ظل يتجول بالحجرة والتفكير يسيطر عليه، ماذا سيخبر الناس عن سبب إقدام هذا الفتى على قتل كليبر؟ فاتسعت عيناه وشرد عقله صوب الشام، وقال لنفسه:

- نعم، يوسف باشا الصدر الأعظم للدولة العثمانية الذي خسر الحرب أمام كليبر في عين شمس بالتأكيد لو ألقيت التهمة عليه بأنه هو المحرض سيقتنع الجنود والجنرلات.

بتلك الأثناء كان بارثلميو يعرض سليمان الحلبي على المهندس الراقد ينازع ألم الطعنات. وقف بارثلميو أمام السرير، واضعا سليمان بوضع الراكع قائلًا:

- له هل هذا هو من قام بطعنك أنت والجنرال؟

لف قسطنطين رأسه ثم وسع عينيه ليرى جيدًا، ثم قال لفرط الرمان:

- أنا لم أر وجهه، هو كان يلبس ملابس شحاذين، لكنني استطعت إصابته في عنقه وهو يطعنني.

فكشف بارثلميو عن عنق سليمان، فوجد السوط تاركًا أثره عليها، فقال له:

- نعم، هذه آثار إصابتك له، هذا هو القاتل.

بينما قسطنطين لم يتحدث، ونظر متعجبًا قائلًا له:

- من الممكن، لأن هيئة القاتل هزيلة وهذا الفتى هزيل.

خرج مينو على الجنرلات داماس ودوما ورينيه، في باحة القصر والجنود تتجمهر حولهم ليلقي كلمته عن توليه قياده الجيش وعن القاتل الذي قبض عليه. فقال:

- أيها الجنود، أيها الجنرالات، لقد حملتني أقدمية رتبتي بصورة مؤقتة، أن أتولى قيادة الجيش، وكل ما أستطيعه لكم الآن هو أن أتمسك بالجمهورية بلا حدود، وبالحرية وبازدهار فرنسا، سوف أصلي من أجل روح كليبر، وأستلهم عبقريه بونابرت، أما عن المتورطين بقتل قائدنا العظيم كليبر، لا أخفى عليكم عن نوايا وعزم يوسف باشا العثماني، بعد أن هزمتموهم شر هزيمه قرر أن يرسل هذا الفتى من حلب ليفتك بقائدنا، سيبين التحقيق كل شئ، الذي سأولي الجنرلات دوما ورينيه الأصدقاء الأعزاء لقائدنا وفقيدنا كليبر، التحقيق مع القتلة.

١٦ يوينو سنة ١٨٠٠:

صباح اليوم الثانى كانت حديقة القصر، تعج بالجنود والجنرالات يتقدمهم رئيس أركان الحرب الجنرال داماس، يتبعه الجنرال رينيه، ثم دوما، وقاضي القضاه السير بيروني يصطفون على طاولة برواق القصر، يكملهم فرط الرمان، بينما سليمان والشيوخ الأربعة ملقيون على الأرض مكبلين الأيدي، أما مينو فكان ينظر من شباك القصر متورايا، مفضلًا عدم المشاركة بالتحقيق حتى لا يورط ضميره بمعاقبتهم. أما فرط الرمان فلم يكف عن ضربهم بالسياط، فوجه القاضي بيروني سؤالًا لسليمان:

- لماذا أقدمت على فعل تلك الجريمة، ومن وراءك؟

أجابه بثبات:

- فعلت ذلك من أجل إعلاء شأن الإسلام، والقصاص من المختل الغاصب.

فضربه فرط الرمان بعنف بالسوط. أشار له رينيه أن يتركه، ثم أكمل رينيه عن القاضي متسائلًا:

- هل وعدك الباشا العثماني بمنصب ما مقابل قتل الجنرال، أو أعطاك المال؟

هز رأسه قائلًا:

- نعم، ولكن هؤلاء الشيوخ لم يشتركوا معي بشيء، هم حاولوا إقناعي بعدم فعل ذلك.

بدأ الأعضاء التسعة المجتمعين التشاور في العقوبة التي سيوقعونها على هؤلاء الخمسة، وشاركهم بذلك بارثلميو، الذي أشار عليهم بتطبيق عقوبة الإعدام بالخازوق بدلًا من الرمي بالرصاص. فلاقى هذا الاقتراح إعجابهم، ثم أشار بتنفيذ نفس العقوبة على الشيوخ الأربعة، إلا أن رينيه اعترض قائلًا:

- منفذ الجريمة هو الجاني الأكبر، أما هم فتهمتهم «علم ولم يبلغ»، فتقطع رقابهم بالسيف أمام عيني سليمان، وتُحرق جثثهم أمامه على مرأى منه قبل أن ينفذ الحكم عليه، ثم تحرق يمينه بالجمر، ثم يُجلس على الخازوق حتى يموت، ثم تترك جثته لتأكلها الطيور.

وافق الجميع على الحكم وقرروا عرضه على مينو، كإجراء روتيني ولكنه حكم نافذ، وذلك قبل أن تنفذ مراسم دفن كليبر.

عصر ذلك اليوم كانت السماء صافية والشمس حارقة على وجوه الجميع، والشوارع تكتظ بالعامة والشيوخ والفلاحين والأطفال والنساء، يشاهدون بترقب ودهشة مراسم وداع صارى عسكر كليبر، حيث تحرك الجيش بكامل عدده صوب مزرعة إبراهيم بك، التي كان نابليون قد أعادها لزينب الأسود، وسلبها منها كليبر فيما بعد. تقدم الموكب قوة من سلاح الفرسان، وخمس قطع مدفعية والفرقه ١٢ مشاة الملقبة بالخفيفة، والفيلق الأول من سلاح الفرسان

بالجيش، والمرشدون مترجلين، والفرق الموسيقية للحامية بأكملها، كانت تعزف ألحانا تواكب هذا الحدث القاسي على قلوب الجنود، والمدفعية تدوي بصوتها من القلعة، تتردد في كافة الحصون والشوارع، أما جثمان كليبر فكان موضوعًا بتابوت من الرصاص محمولًا، على مركبة جنائزية مكسوة ببساط مخملي أسود، محاطة بأسلحته التي جلبت له الانتصارات، وعلى التابوت خوذته وسيفه، يجر التابوت ستة من الخيول مكسوة بالسواد والرياش البيضاء، تجر المركب ببطء، يتقدمهم حملة الرايات من المرشدين، خلفهم الجنرال مينو بلباس الحداد الأسود، يحوطه الجنرلات، يبدو على ملامحه الهدوء، وقلبه يرقص من الفرحة، فقد تخلص أخيرًا من خصمه، ونال حلمه، فلا أحد يعلم نيته سوى زبيدة فقط.

كان يتبعه ضباط الأركان، يليهم جنود كليبر الخاصين، وقائد الأركان، وأعضاء المعهد العلمي، والكومسيرات وضباط الصحة والإداريين، والمرشدين على خيولهم، والعسكر الخيالة، ومن بعيد حسن كاشف مندوبًا عن مراد بك، الذي كان قبل وقت قليل من مقتل كليب، قد تصالح معهم وأبرم اتفاقية ضد العثمانيين والجيش الإنجليزي، وولاه كليبر حاكمًا على الصعيد، بعد أن كان يقاتلهم يمينًا ويسارًا شمالًا وجنوبًا، والقضاة والشيوخ والرهبان والقساوسة اليونانيين والأقباط الكاثوليك، ومختلف الطوائف يملؤون الشوارع ويجرون ذيولهم خلف الموكب.

وصل الموكب إلى المزرعة، وبدأت المدفعية تطلق صيحاتها، وشكلت القوات دوائر لتعلن عن بدء وضع التابوت بمرقده الأخير، بعد أن أزيح عن قاعدة محاطة بشمعدانات، نهض داماس متأثرًا وهو يبكي، ثم ألقى التحية العسكرية.

وجاء وقت إلقاء مينو كلمته، هنا رفض مينو الوقوف على المنصة العالية لإلقاء الكلمة، فاقترب من فوريه وهو المندوب التابع لحكومة الإدارة، لمتابعه

أحوال الجيش، فقال له: تحدث بالنيابة عني، فقد أنهكني الحزن على صديقي ولا أقدر على إلقاء الخطاب. فنظر له فوريه بعين دامعة وقال له:

- لا عليك سيدي الجنرال، سألقي الخطاب.

بينما كان مينو يقول لنفسه:

- كيف كنت سأنعي ضحيتي، لقد رفعت عن ضميري الكثير يا فوريه.

صعد فوريه على تبة عالية، تشبه المنصة، وبدأ بالقاء كلمته والجميع يستمع في خشوع وصمت، قائلًا:

- أيها الفرنسيون، أيتها الجموع القادمة وسط هذا المشهد الجنائزي الذي يعد تعبيرًا زائلًا، وإن كان مخلصًا عن الألم العام، أتيت لأحدثكم عن اسم عزيز، لقائد وضعه التاريخ بسجله، هناك في ذلك البيت البعيد مات قائدنا وصديقنا، صديق الجنود، بعد أن صرع المتمردين والخونة وفر من بينهم من فر، كل الجنود أحبوه، ولكن لم يفلح إخلاص حراسه ولا شجاعته، فقد تمكن منه الغدر، هذا الباشا العثماني الذي دفع لهذا الأجير الأبله المال، حتى يقتص من قائدنا، فأتى منذ أيام قادمًا من غزة لينفذ جريمته. أيها الجنود تعتقدون بأن مقتل قائدنا العظيم سيشتت من عزيمتنا؟ ألا إنهم لا يدرون بأننا سنجد كل خصال الإخلاص والفروسية في خلفيته الجنرال عبدالله مينو. يا كليبر، فلترقد روحك في سلام يا قائدنا، وسط المجد والعزة ولينضم اسمك لقائمة عريضة من الأبطال، أيها الناس لقد اعترف القاتل بجريمته كاملة، بل عدها مبعثا للفخر، ولكن لن ينعم بهذا الفخر طويلًا، إذ حكم عليه بحرق يده التي طالت فقيدنا، ورفعه على الخازوق، لقد قبضنا على أربعه شيوخ لتكتمهم مخطط القاتل، على الرغم من علمهم به، وحكم عليهم أيضا بالإعدام بقطع رقابهم.

وما أن انتهى الخطاب، حتى أتبع المراسم خشوع رهيب من الجميع، خلفته الدموع الحارة المتأثرة بالخطاب وذرفت بفعل حرارة الخطاب، أما مينو فكانت عيناه تذرفان دموع التماسيح، وكأنه يريد أن يقنع الجميع بالألم لفراق كليبر، بينما سرى لقلبه ألما آخر وهو حزنه على هذا الفتى المسكين الذي ورط نفسه بتلك الجريمة. ظلت أصوات المدافع تدوي بحي بولاق من عند المزرعة حتى القلعة.

كنت مع العجوز فوق التبة الكبيرة المعروفة باسم «تل العقارب» بينما كان فرط الرمان يستعد لمادته الثمينة، إذ أحضر أدواته وعدده، لينفذ الحكم على فرائسه، أما العساكر الخيالة فكانوا يقتادون الشيوخ الأربعة وسليمان، ليفر منهم الشيخ أحمد الوالي، هاربًا وراكبًا حمارًا فارًا به بشوارع المحروسة. أما مينو ففضل الهروب من رؤية هذا الحدث المأساوي.

بدأ فرط الرمان بقدح الفحم أولًا، بينما كان قايى القضاة يعيد السؤال على سليمان للمرة الأخيرة:

- أنت الذي نفذت الجريمة، بتحريض من يوسف باشا الصدر العثماني؟

فرد سليمان وقد عادت له عزيمته وأخافه الموت:

- لا لم أقتل.

فتركه واستدار لزملاءه الثلاثة قائلًا:

- أنتم كنتم على علم بجريمته، ولم تبلغوا؟

فلم يرد منهم سوى عبد القادر قائلًا:

- لم يخبرنا بشيء، ولم يفعل ذلك هو بريء.

فضربه فرط الرمان بعصاته الغليظة على ظهره. أما القاضى فلم يلق بالًا لنفيهم التهمة عن أنفسهم، فقد كان يجري إجراءً روتينيًا أمام الجميع في محاكمة غير تقليدية. أكمل فرط الرمان تأجيج الجمر في القدح، واتجه ليسن سيفه على صخرة كبيرة، بينما رينيه ودوما قد أشارا له أن يكمل مهمته في إجراءت العدالة، فاتجه أولًا صوب عبد القادر وجز رأسه مرة واحدة، حتى طارت

لمسافة بعيدة، فطرف سليمان عينيه ألمًا، والشيخان الآخران يرددان الأدعيه والابتهالات المصحوبة ببكاءٍ حار.

اقترب فرط الرمان من سليمان وهو باسم قائلًا:

- توسل لي واطلب الرحمة.

فنظر له بعين الثبات قائلًا:

- أنت كلب نصراني كافر لن تنعم بالجنة، سيحرقك الله بنار جهنم.

عند ذلك أمسك بيده بعنف، ووضعها في الجمر المشتعل، فتألم سليمان في صمت بداخله، ولم يشكو أو تتحرك شفتاه. فاتجه بارثلميو للشيخين المقيدين على الأرض، وجز أعناقهما واحدًا تلو الآخر، ثم رفع أجسادهم ورؤسهم المفصولة، ووضعها على جزء عال، ملقيًا عليها الفتيل المشتعل، فتوهجت الجثث وعلت النيران لفوق.

بينما سليمان ملقي على الأرض ويده تحترق في الجمر الملتهب، دون يصرخ أو يتألم، وهو ما أغاظ فرط الرمان، فقام بإزاحة الجمر حتى طال مرفقه. عند ذلك رق قلب داماس قائلًا لفرط الرمان:

- إن الحكم هو حرق يده اليمنى فقط، وليس مرفقه.

فأزاح هذا السفاح الجمر من عند مرفقه، وسليمان يردد الفاتحة وسورة يس وسورة النور، ويكملهم بالشهادتين، وبارثلميو يضحك متهكمًا:

- هل سينقذك ربك من بين يدي، استغيث به واجلبه لعلك تفلت.

ثم رفع الخازوق قائمًا على رأسه على أعلى تبة، وحمل سليمان يساعده بذلك جندي فرنسي صغير العمر، ولكنه قوى البنية، حمله معه ليرفعه على الخازوق ليستقر من أسفل مؤخرته مخترقًا أحشائه حتى خرج من فمه، عند ذلك أغمض الجندي عينيه، بل جميع الشاهدين من جنود وجنرالات، حتى إن بعضهم ترقرت الدموع من عينيه ألما لهذا المشهد.

رق قلب الجندي على سليمان ونظر له بعين العطف، فقال له سليمان:

- أرجوك اعطني رشفة ماء.

فأخرج الجندي زمزميته، ليناوله الماء في فمه، إلا أن فرط الرمان اعترض قائلًا:

- لا تعطى هذا المجرم نقطة واحدة من الماء، لا بد أن تأخذ العدالة مجراها قبل أن يموت.

ظل الخازوق يكمل اختراقه جسد سليمان، أما روحه فكانت تتأنى في الانسحاب، وآلامه يسمع أنينها سكان المحروسة المصطفون حول تل العقارب، نساءً ورجالًا وشيوخًا وعلماءً يبكون بحرقة، ويدعون الله أن تخلص روحه، ويرفع عنه الألم، بينما سليمان يصارع الألم، وروحه تنازع جسده طيلة أربع ساعات فوق الخازوق. حتى رق قلب الجندي مره أخرى، واستغل انشغال فرط الرمان قليلًا عن سليمان، فذهب مسرعًا له، واضعًا بكفه شربة مياه، مبللا بها شفتي سليمان، ثم ما كاد يملأ كفه مرة أخرى بالماء، متقربًا منه ليعطيها له، حتى صعدت روح سليمان لخالقها متخلصة من آلامها.

عاد الجميع من عند التل تاركين جثة سليمان تاكلها الطيور الجارحة، وتتسلل قوارض الأرض لتتغذى منها.

قدم مينو مساءً عند تل العقارب، ليلقي النظرة الأخيرة على هذا الفتى المسكين، ووقف باكيًا، يناجي جثته قائلًا:

- سامحني يا سليمان، فقد دفعت ثمن جريمة لم ترتكبها، ولم يكن لك بد منها، سيذكرك التاريخ خائنًا ومجرمًا في حق جمهوريتنا، وسيذكرك العرب بطلًا، عزيزى لقد سببت لك آلام كبيرة قبل موتك، لكننى سأصلي حقًا من أجل روحك.

***

الفصل السابع عشر

سُلَيْمَانُ يُوْلَدُ مِنْ جَدِيْدٍ

ظلت زبيدة برشيد، ولم تحضر لتقيم مع مينو بقصر الألفي، فالحمل أرهقها وأعاقها عن السفر، بينما كانت أماليا وعلي الحمامي يعتنون بها بعد وفاة الجارية مسعودة، تبقى معها سرور فقط، كانت الأمور هادئة معها، تظن نفسها بأن نبؤءة مبروكة ستتحقق، فهي أصبحت زوجة حاكم مصر وجنرال الشرق.

مرت الشهور في هدوء على كل الأطراف، فقد استطاع مينو تحقيق طموحه بالاصلاحات الزراعية والصناعية بمصر كلها، فبعد أن تم رفت الشيخ الشرقاوي والقاضي العريشي من الديوان في أعقاب محاكمة سليمان، أصبح الديوان خاليًا من رئاسته ومن الأعضاء، فقرر مينو تعين علي الحمامي رئيسًا للديوان، وكلفه بإنشاء مجمع يتألف من شيوخ وعلماء ورسامين وغيرهم، ويسمى بالمجمع العلمي المختص، ويختص بتطوير وتنميه الأفكار العلمية والثقافية والنهوض بثقافة وحضارة مصر، خاصة بعد أن اكتشف الجنود كثيرًا من الآثار الفرعونية والإيطالية القديمة، أما عن الإنجليز والعثمانين فقد اتخذوا وضع السكينة، بعد حادث مقتل كليبر. حتى حل شهر يناير آخر عام في متاهة الفرنسيين عام ١٨٠١، واتشحت رشيد بالغيوم والأمطار وتناثرت على كل البقاع، وصراخ زبيدة يعلو عنان السماء بمنزل الميزوني،

الـذي امتلأ بالنسـاء مـن جاراتهـا وأقاربهـا وصديقاتهـا، يدخلـون بتدافـع للمنـزل، ليصعـدن لأعـلى حيـث ترقـد زبيـدة عـلى الأرض صارخـة والقابلـة أسـفل سـاقيها المرتفعتـين، تطلـب منهـا العجـوزة أن تدفـع كـي يخـرج الجنـين للحيـاة، ثـم خـرج الطفـل مطلقًـا صرخـة دوت بالحجـرة، وأعطتـه القابلـة لزبيـدة التـي كانـت فاقـدة الوعـي، وأفاقتهـا حسـيبة ببصلـة، لتفتـح عينيهـا عـلى رؤيـة صغيرهـا، متلقيـة ثمـرة حبهـا مـن مينـو بـين حضنهـا، ثـم تنظـر لجمالـه الباهـر، الـذي يقتطـع مـن ملامحهـا بعضهـا وملامـح أمهـا البعـض.

وصـل مينـو لرشـيد ليحمـل طفلـه الأول، يصحبـه صديقـه الفـران، فيصعـد لمخـدع زبيـدة ويجدهـا بانتظـاره بطفلهـا الوسـيم، فتقـرب منهـا واضعـا قبلـة عـلى جبينهـا ثـم قبلـة عـلى جبـين طفلهـا قائـلًا:

- مبارك علينا هذا المولود الذي سيخلد قصتنا سويا.

ابتسمت قائلة:

- ماذا سنسميه؟

فنظر لها بشغف قائلًا:

- لقد سميتى مولودك الأول عبد الله، دعيني أسمي مولودك الثاني.

فضحكت بصوت عال قائلة:

- أنت أول أطفالي.

قبلها على جبينها قائلًا:

- أنت أيضًا طفلتي. سنسمي هذا الوسيم سليمان.

اندهشت قائلة:

- هل ستسميه على اسم سليمان الحلبي؟

- نعـم حبيبتى، هـذا الفتـي أعـدم وهـو بـريء، دفـع ثمـن جريمتـي، أقـل مـا أفعلـه مـن أجلـه أن أخلـد اسـمه باسـم ابنـي.

ثم احتضنها قائلًا:

- سأذهب لملاقاة أعضاء ديوان رشيد، يريدون مباركتي على المولود، ونذبح الأغنام عقيقة للمولود سنة عن رسولنا.

بهذا التوقيت كان رينيه ودوما، يجتمعان بمنزل داماس، بعد وصولهم خبر تسمية الجنرال عبد الله لمولوده على اسم سليمان الحلبى، قاتل الجنرال كليبر، فاتفقا على الذهاب إليه برشيد وإبلاغ حكومة الإدارة، فكتبوا معاهدة فيما بينهم على ترحيل مينو بحرًا لفرنسا، وأن يتولى قيادة الحملة بالنيابة عنهم الجنرال ديبوي، وقررا إبلاغ المندوب العام للحكومة فوريه. فذهبا سويا له وأبلغاه بعزمهم إقصاء مينو، لتشككهم في ضلوعه بالتورط بقتل الجنرال كليبر، إلا أن فوريه احتجزهم جميعًا، واستدعى الكومند فرديه، وناقشه بالأمر، فقرر ترك مصيرهم للجنرال مينو.

وصل مينو الأزبكية بعد أيام، واجتمع بالمندوب فوريه، والكومند فرديه، ليحسما الأمر بترحيل الجنرلات الثلاثه بحرًا، لتشكيكهم بوطنية مينو، ومحاولة تشويه صورة قائد عسكرى عظيم وسط جنوده، فوافق الكومند فوريه وصدق على ترحيلهم بحرًا صباح اليوم التالي.

يونيو سنة ١٨٠١:

جرت الأمور على عجالة، ولم يهنأ مينو بعرش مصر، إذا وصل الإنجليز بسفنهم وفرقاطتهم، واستولوا على رشيد، بينما كانت زبيدة وأماليا وعلي الحمامي يحملون أمتعتهم ويركبون الحمير، فارين صوب الرحمانية، دخل الإنجليز رشيد للمرة الأولى بالتاريخ، ودهسوا وعاثوا بكل شيء، وعلت صيحات النساء، وهرع الرجال لغلق الأبواب بالمتاريس، أما زبيدة فقد وصلت للرحمانية ببيت الحاج عزيز تاجر الأرز، وصديق والدها، فضايفهم ساعة هي وأخيها وزوجته، وخاف على نفسه وماله وعرضه من بطش الإنجليز، فطلب منهم المغادرة، فأكملوا الطريق صوب الأزبكية وصراخ الطفل الصغير يدوى بالطرقات، حتى وصلوا ليلا وقد أنهكهم الطريق.

ما إن لاقاها مينو بقصر الألفى، حتى توجه نحوها محتضنها هي وطفلها، فبكت قائلة له:

- أخاف على طفلي وعليك.

أمسك مينو يديها وقبلها قائلًا:

- سنعود حبيبتي لبلادي، وستكونين أنت وطفلنا بأمان معي.

بصباح اليوم التالي خرج مينو على جموع الجنود والفرق وضباط الصف وفيلق الهجانة، وأطلقت المدافع رشقاتها للاحتفال بالذكرى الثالثة والأخيرة لفتح الإسكندرية، فألقى عليهم خطابًا ليخبرهم بتطور الأمور، قائلًا:

الساده الجنرلات والضباط وضباط الصف والجنود في جميع أسلحه الجيش، استسلمت القوات الفرنسية الرابضة في القاهرة والقلاع المجاورة دون مقاومة، ودون أن يشن عليها أي هجوم، ولن أسمح لنفسي بالخوض في التعليق على هذا الحدث الاستثنائي، الذي ربما لم نشهد مثله في هذه الحرب، خشية أن أصيب بالخزي رجالًا أظهروا حتى الآن من الكرامة ما يجعلهم جديرين بأن يكونوا فرنسيين جمهوريين، أعلمكم أنني اجتمعت بالجنرالات، وقررت أن نتصرف في هذا الموقف مثلما يفعل الرجال، وها أنتم كنتم تثبتون دوما تضحيتكم وصبركم وشجاعتكم، مما يجعلني لا أشك لحظة في رد فعلكم وسلوككم، سوف أنهى تلك المهزلة وسنعود جميعًا لوطننا، لن أتسبب في سفك دم جندي واحد.

وما إن أنهى حديثه حتى استعد الجميع للذهاب صوب أبوقير، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الفيلق البحري.

أغسطس سنة ١٨٠١:

فى مساء يوم السابع عشر من أغسطس الحزين، كانت زبيدة تجلس بحجرة القناديل بالقلعة، ومعها الوزير الأعظم يوسف باشا، التابع للوالي العثماني

والكولونيل روفائيل، مندوب القنصلية الإنجليزية يعرضان عليها البقاء بمصر وعدم الذهاب، وزبيدة تبكي وهي تحتضن طفلها وتقول لهما:

- أنا أحب زوجي وأريد الذهاب معه.

فينظر يوسف باشا لروفائيل ويقول لها:

- لا بد أن تعلمي أن الإنجليز يحتجزون أخاك الحمامي بالمخزن الكبير ناحية بولاق، أما زوجته الفرنسية فقد أفلتت منا، ولحقت بحملتها، بينما هو سيحاكم بتهمة الخيانة، فهو من المتورطين بخيانة الدولة العثمانية، إن أردت البقاء سيُفرج عنه.

- أخي يتدبر أمره، أما أنا لدي طفل لن أربيه بعيدًا عن أحضان أبيه.

عند ذلك دخل الضابط الفران الصديق الشخصي لمينو، فطلب التحدث مع الوزير يوسف باشا على انفراد، فخرجا سويًّا بضع دقائق ثم عاد للغرفة وقال لها:

- اذهبي مع الفران لزوجك، حتى تلحقي بالأسطول.

ابتسمت زبيدة ومسحت دموعها، وخرجت بصحبه الفران، ليلحقا بمركبة بالنيل، حتى وصلا للرحمانية، ومنها أقلتهم عربة خيل حتى الثغر. بينما كان الشاطئ يكتظ بالجنود الفرنسيين والإنجليز، والمراكب والفرقاطات والسفن تغلقه، هنا التقى مينو بزوجته فاحتضنها وصعدا سويا للفرقاطة. بينما أنا أصعد معهم أوقفني العجوز قائلًا:

- هنا انتهى دوري يا صغيرتي، فالحملة بطريق عودتها لميناء طولون، من هنا بدأنا.

- لكنك أخبرتني أنك ستقودني لمعرفة الحكاية كلها.

- بدأنا من هنا من لحظة صعود زبيدة للفرقاطة، وسأنتهي منها فلا طاقة لي بحكايات الغرب.

- لكنني أريد أن أعرف مصير جدتي لأمي بالغربة.

رد وهو يطير بأجنحة كبيرة:

- ستجدين المفتاح.

ظللت أنادى عليه:

- أيها العجوز انتظر، أي مفتاح تقصد.

لكنه تلاشى، بينما كانت السفن جميعها تتحرك بغياهب البحر

***

obeikandl.com

الفصل الأخير

سَنَوَاتُ التِّيْهِ

منزل الميزوني برشيد، ٢٠١٦:

استيقظت وأنا ملقاة على الشزلونج بشاطئ البحر، لأجد جروي الصغير بجانبي كما هو، وأنا بكامل هيئتي والسماء صافية، بشمسها الساطعة، وهاتفي بجانبي على الطاولة يرن، فأجبت لأجده صديقي باحث التاريخ محمد، يقول لي:

- كيف حالك يا فادية؟
- أنا بخير، كيف حالك أنت؟
- بخير، لقد بحثت لك عن تلك الرسائل التي طلبت مني أن أعرف حقيقتها، ولم أجدها.

صمتُّ قليلًا، أنا أستعيد نفسي بعد هذا الحلم الذي تناسخت فيه روحي مع روح جدتي لأمي زبيدة، وسافرت بروحي لزمنها، ثم قلت له:

- ألم تجد أي رسالة قط، تحمل اسم «سنوات التيه».
- لم أجد إطلاقًا.
- شكرًا.

obeikandl.com

ثم أغلقت الهاتف وأعددت حقيبتي للرحيل، وبينما أنا استعد، إذ فاجأني جروي الصغير، بحمله لقارورة معدنية صغيرة في فمه، في البداية حسبتها قارورة من النفايات، ولكن لفت انتباهي الصدأ الذي تمكن منها، فأخذتها منه، وحاولت فتحها بمفتاح سيارتي، حتى فتحتها، فإذا بداخلها مفتاح صغير جدًّا، عند ذلك تذكرت جيدًا كلام العجوز وهو يتلاشى «ستجدين المفتاح».

حملت حقيبتي وأغراضي وانطلقت مسرعة نحو سيارتي، وقدتها مسرعة صوب رشيد.

وصلت لرشيد، تحديدًا عند منزل الميزوني منزل جدتي، فوجدت الموظف على باب المنزل يعترض دخولي، فأبرزت له بطاقة هويتي الصحفية، فرفض، ظللت أفكر ماذا أفعل، ثم خطر ببالي فكرة عرض مال عليه، ذهبت نحوه ومددت يدى في يده، واضعة وقة مالية من فئة المئتي جنيه، فنظر لي مبتسما وقال لي:

- لا تتأخري، ولا تلمسي شيئًا.

فهززت رأسي بالموافقة قائلة:

- سأصور بعض الأشياء.

دخلت للمنزل وبقلبي شغف لمعرفة سنوات تيه جدتي في الغربة، فصعدت للغرفة التي كانت تقيم بها في الدور الثاني، وهداني عقلي أن أبحث بالدولاب الحديدي، فإذا بي أجد فتحة بسقفه، بها مكان لموضع مفتاح، فأمسكت بالمفتاح الصغير الذي معي وفتحت به موقع الفتحة، فسقط منها مظروف، جلست على دكة فارغة بالحجرة، وفتحت المظروف لأقرا ما به. كان الجواب معنون بتاريخ واسم المرسل إليه واسم الراسل:

مارسليا، الجمهورية الفرنسية. مايو ١٨١١:

اسم المرسل إليه: حسيبة غزال.

اسم الراسل: زبيدة عبدالرحمن الميزوني.

اكتب لكي من المنفى الاختياري، وأنا طريحة الفراش، يطاردني المرض الأسود الطاعون، لم يتبق لي أحد سواك يا حسيبة لأخبره نهاية ضحية النبؤءة، أخبره نهاية فتاة حلمت بالسلطة والجاه والحب، فظنت كل الظن أنها ستنالهم أبد الدهر، حسيبة، صدقت نبؤءة مبروكة، فقد حكمت الشرق والغرب، حكمت مصر عندما ولي مينو حكمها بقتله لغريمه كليبر، وعندما هاجرت تاركة خلفي وطني باختياري، ظننت بأنني سأحكم الغرب معه، كما كان يشاركني حكمه لمصر، لكنني أخطأت كل الخطأ، فقد حكم زوجي توسكانا بعد رحلينا بعام، ثم بدأ بإهمال أمري وتجاهلني من أجل عاهرته جين جراسين، أجبرني على كراهيته، وطالت الخلافات بيننا حتى عاد لي، بعد أن تولى حكم البندقية وسافرنا سويًّا لإيطاليا، طالبًا مني أن أُعَمِّد سليمان، فرفضت بشدة، بينما كنت أستعد لألد طفلنا الثاني، الذي سميته على اسم أبي «البواب». ثم عاد ليطلب مني تعميد البواب، فأقنعني بحجته، وأحضر لي بالبابا ليجادلني فيها، فاستسلمت لضعف حجتي أمامهم بإيماني بالدين الإسلامي، ثم زاد اقتناعي عندما أخبرني أن الكنيسة الكاثولكية ستسدد عنا الديون المتراكمة عليه حال تعميدنا.

زادت أموري سوءًا بموت «البواب» بمرض الجمرة الخبيثة، فطال غياب قلبي أن يعود له الإحساس، فقررت ترك سليمان عند صديقة لي بباريس لا تنجب، تعرفين يا حسيبة فكرت كثيرًا أن أجلبه لك لتعتني به ولكن المرض سبق نيتي. مات مينو العام الماضي ونحن بميستويى، مات بحضني وهو يخبرني بأنني المرأة الوحيدة التي أحبها، اعتذر لي مؤخرًا عن كل سوء سببه لقلبي وحياتي طوال تسعة أعوام في الغربة.

بعد وفاته لم استطع أن أسدد ديونه، فاستولت المفوضية على فيلتنا بميستوري والشركة التي أسسها من أجلي قبل وفاته بقليل، مسميًا إياها على اسم طفلنا الفقيد «البواب»، أصبحت بلا شئ بعده، حتى حل مايو الماضي، عندما أرسلتي لي خادمي الحبيب سرور بالمال، الذي لم يكف شيئًا، ولا أعرف كيف

عرفتي حاجتي وأنا دوما كنت أرسل لك أنني بخير، حتى انتهى المال، فخرج سرور ليعمل بالمطاعم كنادل ليوفر لي بعض اللقيمات، أصررت على عودته، وأبى أن يتركني، فاضطررت للكذب عليه بأنني سأتزوج، فصدق وعاد، حسيبة أنا لم أتزوج كما أخبرك هو، أنا كنت أعمل بحانة لتقديم الخمور بإحدى شوارع الشانزليه، أقدم النبيذ للزبائن، يتحسس هذا جسدي ويشدني ذاك من خصري، ويضع ذلك يده على مؤخرتي.

حسيبة أين الله بالإسلام، إن الله هو المسيح الذي سيأتي ويخلصنا من الشر، أنا لا أعرف كيف قبل مينو أن يسلم من أجل أن يتزوجني، ليتني تنصرت أنا من أجله، أنا لا أعرف ما جدوى تغطية الرأس واللبس الذي يخفي جمالنا، أنا هنا تحررت من كل ذلك، أنا هنا ألبس ما يجعلني أنثى، عندما مات مينو بحضني ظل يردد الشهادتين وهو ممسك بيدي، متوسلًا لي أن أرجع أنا وسليمان للإسلام، وأعلم سليمان القرآن. مات هو من أجلي مسلمًا، وأنا سأموت من أجل حبه مستنصرة بدين الحق، دين المسيحية، أكتب لك والمرض يشتد معلنا عن رحيلي، فقد طالت رقدتي بفراش المرض، حتى تقرح جسدي الهزيل، أشتاق لمجلسك، وكوب الشاي من يدك، ولمة العائلة زمان، رائحة أمي أحن لها، رائحة رشيد التي أخرجتني، صوت المطاحن بشارع البحر، سلام عم غزال علي، وغيرتك التي أخفيتها دومًا مني، يا من تبقت لي احفظي سري بين طيات قلبك، لعل الزمن والتاريخ يرحمني، اذكري دومًا أن ثلاثة أعوام قبل رحيلي من مصر لم يكونوا أوفر حظًا، من عشرة أعوام غربتي، جميعهم سنوات تيه.

تمَّت

٢٣ نوفمبر ٢٠١٦

***

المراجع التاريخية

١- مظهر التقديس فى زوال دولة الفرنسيسن.. الجبرتى.
٢- تاريخ مختصر الجبرتى.. الجبرتى.
٣- مذكرات ضابط بالحمله الفرنسية .. الظابط مورية.
٤- بونابرت فى مصر.. هيرولد.
٥- تلخيص الإبريز فى تاريخ باريز .. رفاعة الطهطاوى.
٦- تاريخ الحركة القومية الجزء الأول .. عبد الرحمن الرافعى.
٧- التراجم والأخبار - الجزء الأول للجبرتي.

obeikandl.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

noon_publishing@yahoo.com
0235860372 - 01127772007

obeikandl.com